سلسلة روايات
هولوكوست عشتار
الجزء الأول
خريف الغراب
رواية
سميرة أحزاب

سلسة روايات هولوكوست عشتار

الجزء الأول

تحرير الغراب

«على ورقتي المتسخة وبقلم حبر فارغ يكاد أن ينتهي مداده، أكتب بخط متقطع وأصابعي ترتجف لأني سأكتب لك شيئا لن أسامح نفسي عليه أبدا: عليه أن يموت.

لحماية البشرية من الفناء، القادم يجب ألا يعيش

إنها وصيتي لك.

تركت على عاتقك مهمة صعبة فلتجده ستلوث يديك بدمائهم وعيونهم المرتجفة سترافقك مدى العمر، كل هذا ليستمر عالمنا.

أخفقت في مهمتي، فقد استمرت السلالة الآثمة في الاختباء، لطالما اعتقدنا أنه سيولد بأرض الميعاد، غير أن الإله قد أخفى نوره علينا، عاقبنا لتركنا عقيدتنا السامية فعميت أبصارنا وانشغلنا مع عبدة المال وها نحن ندفع الثمن بأن رفع شأنهم وأصبحنا تحت سطوتهم، خذلنا الإله لكنه لم ينسانا وحبانا بفرصة ليغفر لنا.

أيها الصديق إنه دورك الآن والخطوة القادمة أن تمحو من على الأرض كل بذور هذه السلالة الرجيمة، كل من تسري في

عروقه قطرة دم شيطانية، بل كل من سولت له نفسه أن يدافع عنهم، فلا مجال للمخاطرة بدمار العالم. القادم واحد منهم سيشرب من الفرات ودجلة وسيمشي على جنبات بردى ويصعد جبل أحد وقاسيون، وسيصلي في شوارع مطلية بالدماء.

في روحه سترى الرعب، فالموت يدعوه من كل اتجاه. لا أحد يستطيع أن يرى حقيقته فهو بنفسه لا يراها فلا تخدعك عيناه البريئتان. قد يتراءى لك كأي إنسان يضحك ويحزن، يحب ويكره، صدقني إنه روح معذبة يكمن في أعماقها ذلك الكائن الغريب، كائن رأى ما لا يجب أن يُرى وعرف ما لم يعرفه إنسان من قبل.

سيأتي حين يلتهم النهر جثث من سقاهم ويأخذ ما بقي من شبابهم، عندها سيجف الماء وتروى الأرض بسيل من الدماء. ستولول الأمهات وقد ذقن طعم لحوم أطفالهن، وتموت الرجال كالبهائم ويسقط الناس صرعى كالجراد ويدفنون في قبر طوله مئة ذراع، حينها ستفور دمائه وتلمع عيناه حزنا، وقلبه ملأ بالذعر، بالجزع، بالغضب، باليأس، بالفراغ، بالمعاناة، بالوحدة، بالألم... بالموت»

(1)

ريف إيد ليبو الشمالي أيار X021

انطلق الميكروباص وعلت زمجرة المحرك على إيقاع دوران العجلات غير المنتظم، فيهتز على أثره هيكل العربة الرديء. توقف بين فينة وأخرى عند حواجز التفتيش العسكرية التي تملأ الطريق الممتدة على سبعة وثمانين كيلومترا، تزين جنباتها مجموعة من الأحراش وشجيرات قصيرة وأحيانا أكواخ قروية مختبئة خلف أغصان الكرم. ماذا كانت الكلمات يا ترى؟ أمالت زهراء رأسها نحو زجاج النافذة، ففي الأيام الأخيرة لازمها لحن تهويدة قديمة من دون أن تستطيع استنباط كلماتها، ومستسلمة لرتابة الطريق الملتوية أسدلت جفنيها لدقيقة.

تراءى لها حلما كانعكاس ضوء على الزجاج في نهار ضبابي، كالغمام، آسر وحزين بعض الشيء غير أن العين لا ترى سواه. هدهدت الأم طفلتها تلفها بين ذراعيها، تغني لها أغنية

عن الحمام لتنام. تمسكت أنامل الصغيرة بثياب أمها تنصت للتهويدة التي تُعزف على إيقاع نبضات قلبها الحنون ومال رأسها إلى صدرها وغفت... تذكر أنها غرقت في نوم عميق تحت حصن جفون الأم المنيعة، في حضنها الذي يعبق برائحة الأمان... الحب... لو أنها نامت مئة عام... لو أنها لم تستيقظ يوما... ساعتها سيظل لحن التهويدة يعزف إلى الأبد... يا ترى ما الكلمات؟

فقد ضاعت الكلمات بين صرخات الأرواح النائحة، نادت الطفلة بصوتها المخنوق... ماما. ابتسمت الشمس على الأجساد المرصوصة ملفوفة بملاء ملونة وخشنة، اهترئ صوفها وتدلت منها الخيوط. ليس هنالك أكفان فالعدد كبير، مقبرة جماعية ستفي بالغرض. لكن الصبية آنذاك لم تر يوما ميتا فلم تكن تفهم معنى الموت، فكيف لطفلة في عمر الزهور أن تستوعب ما حدث فحتى ذلك الشيخ الهرم ظل واقفا أمام العمود كقطعة خشبية بعيون شاخصة، ربما تساءل كيف طال به العمر ليشهد يوما كهذا... نزلت دمعة من مقلتيه وانكمشت شفتاه المتجعدتان وقد انتهى وقت الكلمات...

تحرك النسيم يتلاعب بالملاء، تنزل وتهبط على لحنه الكئيب. انقشع وجه الأم الذي كاد لونه يمتزج مع الغطاء الأرجواني الخفيف. اندفعت الطفلة فرحة... ماما... ماما... لكن من

سيجيب. أضحى الحصن المنيع عيونا مغمضة مسودة والحضن الدافئ يدين متصلبتين باردتين... ضمت الطفلة وجه أمها بيديها الصغيرتين تنادي... ماما... ماما... ملمسه لا يزال أثره على يديها إلى الآن...

اهتزت العربة بعد تجاوز مطب ترابي وأخفض صاحبها السرعة تدريجيا لتتوقف أمام حاجز تفتيش علقت أمامه لافتة مستطيلة كتب عليها 'الشرطة الإسلامية' وتحتها الجبهة الإسلامية التي تسيطر على معظم مناطق إيد ليبو. نفضت زهراء النعاس عن عينيها واعتدلت على نصف كرسي ويشغل النصف الآخر امرأة منقبة برفقة طفل. عم الهدوء بين الركاب وقد تأهبوا عندما طُلب من السائق ركن الميكروباص إلى حاشية الطريق. أخذ ضابط باستجوابه والرجل يجيب بأدب باحثا بين أغراض صندوق تحت المقود عن أوراقه الرسمية ورخصة التنقل بينما صعد ضابط آخر يتحقق من المسافرين واحدا تلو الآخر.

كان رجلا فارع الطول، له بطن منتفخة تدل عن قلة ممارسة الرياضة إلا أن ذراعيه المشعرتين تبرزان قوة في العضلات المشدودة والكتفين الواسعين، على أحدهما ترقد بندقية روشية نصف أتوماتيكية من طراز آكا 7ب، السلاح المفضل بين الجهاديين لخفته وسرعة طلقاته. زين المقاتل وجهه بلحية

سوداء منتوفة كحاجبيه العابسين وعقد شماخا على رأسه لتحميه من حرارة الشمس في عز الظهيرة.

أمر بضعة من الركاب بالترجل للتحقيق معهم أكثر عند الحاجز، كانوا مجرد أناس غير محظوظين سيضطرون لدفع رشوة لاستئناف رحلتهم. وصل الدور عليها فمدت الهوية، ورقة مهترئة ذات حواف ممزقة وقد تبللت بالماء عند خطوط الصورة الشخصية ففسرت قائلة: «هذا ما لدي، فقد دمر منزلنا وضاع كل شيء، والحمد لله تبقت هذه سالمة... إلى حد ما»

تمعن المقاتل في الورقة كأنه يريد استخراج شيء سحري منها وتمتم: «تاريخ الازدياد، ليس واضحا تماما» وقربها إلى عينيه محاولا فك الحروف التي اختلط حبرها مع بعضها البعض في ريبة: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

– «الدراسة» سبب نظيف ولا يثير كثيرا من الأسئلة، فلا شيء يقف في وجه العلم حتى الحرب. تفرس الرجل في وجهها، خشيت أن يكتشف شيئا فتغيير الصورة الشخصية كان الأمر الأصعب.

– «زهراء نيسان، نصرانية...» نطق بالكلمة كأنها سبة تخرج من فمه: «أتيت بمفردك؟ أين ولي أمرك؟»

– «العائلة كلها بإيد ليبو وأنا سألتحق بهم بإذن الله تعالى» تفحصها من رأسها إلى أخمص قدميها، حافظت على ثبات أنفاسها قدر الإمكان حتى لا يظهر أي تشوه تحت العباءة، بالتأكيد لن يطلب بتفتيش امرأة من العوام، لو أنها استطاعت تغيير الديانة إلى سنية لكان هذا أفضل لكن لم تستطع العبث بالورقة أكثر.

أعاد الورقة قائلا: «استري شعرك يا بنت الناس» مشيرا إلى غطاء شعرها الذي انزلق ومر إلى الراكب الذي خلفها. عدلت الشال وثبتت طرفيه حول عنقها عاقدة ما تبقى إلى الخلف، لم تكن معتادة على هذه الملابس، فالعيش كالعوام متعب حقا. تحققت من الساعة على هاتفها وقد اضطرت كباقي الركاب إلى الانتظار ساعة أخرى قبل أن ينطلق الميكروباص من جديد، هذه المرة نحو المنطقة الحضرية. ابتدأت بخيمتين لبائعي القهوة والمأكولات الجاهزة. أغلب المحال مغلقة تعلوها منازل قصيرة القامة، معظمها يتكون من طابقين ويسود جدرانها الأصفر الرمادي. لا وجود للحدائق المنزلية وتكاد النباتات أن تكون منعدمة بين الشوارع وقد تناثرت الأزبال مع أوراق الشجر على حواف الطريق.

كثيرة اللوحات الإعلانية التي تحاول إقناع شعب السرمد بالبقاء ببلدهم، كلوحة تضع الخيار بين سترة نجاة و'جُعبة'؛ وهذه

تعني السترة العسكرية وخط إلى جانبهما سؤال بالخط العريض: 'أيهما تريد تلبس يوم القيامة؟' لقد نسوا وضع حرف 'أن'، لكن الدقة في التنفيذ كانت دائما أسفل القائمة في هذه المناطق.

تسعى الجبهة جاهدة للحصول على تأييد الحاضنة الشعبية لكن طرقها الفجة في تحصيل الجبايات وتطبيق القانون بالقوة غذت الكره المتنامي ضدها في نفوس العوام من الساكنة الذين يعيشون تحت وطأة الفقر والذل فأفضل الأجور لا تتجاوز ثلاثين دولارا للشهر، كانوا عالة لا يقاتلون، لا يغيرون من حالهم شيئا فقط يتذمرون ويشتكون لأي جهة إعلامية تزوروهم عندما لا تجد موادا لعرضها خارج أوقات الذروة، وكل أحلامهم تتلخص في الهروب نحو أوروبا.

أبطأ السائق من سرعته عند قنطرة تمر من فوق نهر القاسي وتوغلوا أكثر نحو الشمال الغربي وصولا إلى معبر الجلاء فلاحت جموع غفيرة من الناس متحلقين حول مدخله ينتظرون. قالت امرأة لزوجها وهي تحدق من النافذة: «أخبرتك أن ننطلق باكرا، هكذا سنعلق هنا إلى أن يحل الظلام»

فأجابها صارخا: «هل هذا خطئي أيضا؟ لم أجد وسيلة نقل إلا أن بعد أن طلع النهار»

– «كْواه؟ نومة بلا قومة، أليس البارحة كان ابن عمك مسافر؟ أنت الذي رأسك كالصخر لم ترض أن نرافقه»

أمسك برأسه وصاح من جديد وقد تبينت لهجته الشامية التي تدل على أنه نازح من الجنوب عكس زوجته الشمالية الشابة: «الله صبرني معك، لَييكِ براميل النظام وذبح داشع أرحم لي من السباب الذي يخرج من فمك»

شاركت الصبية الزوجة مخاوفها فهذا الحشد المنتظر أكبر بكثير مما توقعت. ركن السائق في المحطة المؤقتة فتدافع الركاب إلى النزول. تثاءبت بعدما مست قدميها الأرض ومددت يديها في الهواء إلى أن سمعت طقطقة المفاصل المتعبة من الجلوس وقد انسلت إلى أنفها رائحة المازوت ممزوجة برائحة روث الدواب التي تتضوع في المكان.

من هنا ترتسم المدينة كئيبة الملامح بمبانيها المهجورة التي تعوي كلما هبت الرياح، وقاسية الطبع في مياه النهر الضحلة وصخوره التي ترسم له مسارات متعرجة كأنها تحاول التمسك بمياهه كيلا تفلت من قبضته. انتشرت الحشائش بين ضفافه، تتشابك كخيوط الذهب في جهة وتنحني وتنكسر باستسلام في جهة أخرى تحت أقدام المنتظرين لدورهم، وآخرون افترشوا الأرض من كثرة الانتظار الذي يشغل كل حيز في حياتهم.

تقدمت زهراء نحو الصف المشوه وقد تسابق الناس على أخذ الدور وتراكم بعضهم على بعض كخلية نحل لكن شتان بينه وبين النحل المنظم. كلما رفعت يدها لتلتقط الرقم الذي يمده صاحب المكتب المختبئ خلف الزجاج، يفاجئها أحدهم بخطفه في مناورة لم تشهدها في أعتى المعارك أو تدفعها امرأة جانبا فتصطدم بآخر يصيح في وجهها بأن تبتعد عن الطريق. أدهشتها قوتهم وعيونهم الجاحظة، لو أنهم يستخدمون نصف هذه الحماسة في القتال لربحوا الحرب منذ أمد بعيد.

فارتمت زهراء بكل قوتها نحو الزجاج ومررت يديها من الثقب لتخطف قصاصة ورق ثم تملصت من الجموع وبكل خطوة تمد ذراعها أولا ثم تخطو إلى أن وجدت نفسها خارج الكومة البشرية فأخذت نفسا عميقا من الهواء النقي وتفحصت الرقم المعطى لها: مئتان وسبعة وأربعون.

أطلقت آهة ساخرة، لقد كانت ساذجة حين اعتقدت أن بإمكانها الدخول بالطريقة التقليدية، قامت بجولة سريعة حول المكان وعادت تنظر إلى الحشد الذي يقف بينها وبين الباب، العيش كالعوام مزعج حقا، عضت على شفتها راغبة بأن تدخل مندفعة وتطيح بأي أحد منهم وتنتهي من كابوس الانتظار هذا، ثم رأت شيئا لم يخطر على بالها للحظة، رجل شيخ يلقي التحية على عامل بالمعبر ثم مرر بسلاسة وهو يسلم عليه نقودا، أوه كيف لم أفكر في ذلك؟

ألقت التحية على العامل، رجل عبوس متوسط العمر بوجه سمين لزج ونبتت عليه تجمعات من الشعر الأسود والشائب على ذقنه، ارتدى تحت سترة برتقالية مخصصة للموظفين قميصا قصير الأكمام، مفتوح الأزرار من الأعلى حيث يطل زغب صدره متلبدا والأزرار السفلية تستميت لتشد كرشه المدلوقة إلى الخلف حيث ترنح المسدس في جرابه. لم يعرها اهتماما وبتوتر مدت بعض النقود محاولة إخفاءها تحت كمها فقال: «ماذا تريدين؟»

– «لدي حالة طارئة وعلي العودة قبل موعد الحافلة»

– «أنت ما عندك أبوك ولا أخوك يستروك؟»

تفاجأت من ردة فعله، هل لا يقبل الرشوة كما اعتقدت أم أنه لا يقبل الرشوة من النساء، فأجابت: «الله يرحم الوالد من زمان وما عندي أخ»

فتنهد بحسرة قائلا: «إيه والله على البلد التي صارت كلها نسوان» لوح بيده خلف ظهره وأشار إليها بعينه ففهمت قصده وأعطته بعض الليرات التركيشية فلا أحد يقبل الليرات المحلية بعد تدهور قيمتها، فقال الكهل: «الله يلعن أمريكانا وأشراريل، بسببهم صارت كل المعاملات بالدولار» الفاسق يريد رشوة، وبالدولار أيضا؟ سحبت خمسة دولارات فعض على شفته قائلا: «ثمن

البرميل ارتفع إلى خمسة دولارات، الله يلعن أمريكانا على هذا العمل، الواحد فينا يلزمه برميلين لكي يعيش»

فكرت للحظة أن تسحب مسدسه المتدلي وتفرغه بين عينيه غير أن يدها ابتعدت عنه وسحبت النقود المنكمشة وعدت عشرة دولارات كاملة. خبأ المال تحت حزامه وقال: «اليوم الحرارة مثل حرارة جهنم هذا الجو لا يناسب حرمة صغيرة مثلك، تعالي معي»

تمتمت وهي تتبعه: «فلتحترق في جهنم بإذن رب العالمين»

– «أقلت شيئا؟»

– «الله يحفظك ويحفظ أولادك بإذن رب العالمين على طيبة قلبك وسعة صبرك» ورفعت يديها إلى السماء مكملة: «آمين»

– «تجيدين الكلام، أهلك عرفوا كيف يربونك» وأخذ قصاصة الورق الذي عدل عليها رقم الدور وورقة الهوية أيضا، «أخبريني شيعية أنت؟» فهزت رأسها بالنفي واطمأنت فهذا عنى أنه لم يتمعن في المعلومات الشخصية على الهوية كسابقه وأكمل: «الحمد لله، كما يقولون كوني يهودية ولا تكوني شيعية أو نُصيرية، على الأقل لو أنك يهودية لذهبت لأشراريل الذي أصبح البلد الحر حسب ما يقولون، إنه آخر

الزمان إيه والله، والقيامة ستقوم عما قريب. أنا أهلي يريدونني أن أتزوج بنت ناس، سنية تخاف الله، متزوجة أنت؟»

فهزت رأسها نفيا مستغربة من السؤال وقال: «لست متزوجة؟ أفضل شيء أن تجدي رجلا يصونك ويحميك» ثم تنهد بصوت عال وأضاف: «هذا الزمن صار صعب إيه والله» وضغط على آلة صدئة تصدر صوت محرك شاحنة قديمة وأخرج ورقة طبع عليها الختم، وعندما حاولت أن تأخذها منه صدها قائلا: «لما هذه السرعة؟ تعلمين علينا التأكد من بعض المعلومات، فهناك أناس، الله لن يسامحهم على فعلتهم، يأتون بأوراق ثبوتية لأشخاص آخرين، والتي تكون في أغلب الأحيان لأقاربهم الذين توفوا منذ وقت قريب... إيه والله على زمن!»

كان هذا الأحمق محقا من دون أن يعلم، فكل ما يبتغيه هو أن يماطل. وعلت ابتسامة لزجة شفتيه وهو يحاول بخبث التقرب إليها حتى وهي على هذه الحالة، إنها ترتدي عباءة سوداء عريضة وتغطي شعرها، ووجهها يتصبب عرقا من شدة الحرارة، ليس هناك أسوأ من العيش كالعوام كالعيش كأنثى في هذا المكان.

سايرته وفي خيالها تجول أفكار عن كيفية قتله، أفضلها أن تسحب الشال الطويل وتلفه حول عنقه، لن يتطلب الأمر أكثر من دقيقة، أثناءها سينبش الرجل بأظافره أطراف القماش وفي

الهواء حتى تنقلب عيناه الدائريتان القبيحتان إلى بياض. وجاءها الفرج عندما ناداه زميل فأعطاها الورقة لامسا ظهرها من الأعلى نحو الأسفل بلطف مقزز.

وأخيرا وجدت نفسها داخل المدينة.

أقيمت عمليات ترميم في ظل وقف الأعمال القتالية، أصلحت بعض مرافقها ومن بين العمارات وعلى الأرصفة تراص الباعة المتجولون وأصحاب المحال يعرضون سلعهم ويصيحون بتخفيضات حصرية. التقط أنف زهراء رائحة لذيذة في الأجواء دغدغت شهيتها فاشترت سندويشة فلافل وشراب عرق السوس الذي ليس له في مثيل في روي الظمأ، وحفنة من المكسرات، وخمس قطع من حلوى البسبوسة حتى أن البائع سألها إن كانت ذاهبة لزيارة العائلة من كثرة ما تحمله من الطعام، فاكتفت بالابتسامة وتناول قطعة من الحلوى، ربما اقتنت الكثير لكن قد تمر ساعات قبل أن يظهر الهدف.

اختارت إحدى العمارات ذات أربع طوابق ودخلت كأنها تملك البناية، كان عند المدخل بواب عجوز أشبه بجثة هامدة، عيناه ناعستان وأذناه منشغلتين بالراديو وكأس من القهوة يرقد بين يديه. وعند أسفل السلالم، توسد طفل نائم كيسا أسودا ممتلئا بعلب المحارم التي يبيعها، وقبل أن تصعد وضعت سندويشة

الفلافل وقطعة من الحلوى أمامه، فقد يستفيق جائعا، فهي تعرف ألم الجوع.

انتشرت بقع بنية جافة عند عتبة باب السطح وفاحت رائحة العطن من مجرى صرف في الزاوية وقد نبتت من ثقوبه نبتة برية، وتراكم الغبار بين أواني قديمة صدئة مرمية في الأرجاء. كل هذا دل أن أحدا لم يصعد إلى السطح الصغير منذ مدة طويلة وقد أكد الصرصور المنقلب والذي صار يابسا كقشة رأيها.

أغلقت الباب بإحكام، نزعت الشال الطويل أولا ومسحت جبهتها، فقد ارتفعت حرارة الطقس فجأة هذه الأيام وحل أيار هذه السنة بموجة حر غير طبيعية، منبئا بصيف حار وطويل. خلعت العباءة ورصتها جانبا أسفل الكيس، فتَحْتها تمنطقت زهراء بحزام جلدي علقت عليه قسمي البندقية الأمريكانية ولوازمها، إلى جانب مخزن الذخيرة والمنظار.

وبدأت بإعداد منصة الإطلاق، جمعت أجزاء البندقية وعدلت مسار الرصاصة بتعيير النقطة الحمراء للمنظار حتى يلتقي مع محور السبطانة بعشر سنتيمترات. وضعت أسطوانة سوداء على زجاج المنظار للتخفيف من لمعانه فقد يؤدي انعكاس الضوء للكشف عن موقعها ثم تفحصت صورة الهدف على هاتفها.

كان الأجر مرتفعا خلافا للعمليات السابقة، ومن أجل رجل عجوز لا غير، لم تحصل على اسمه ولا تعرف ما عمله، إذ يكفي أن يرسل المستأجر طلبه مع أبي سلمان، مرفقا بالصورة والموقع. لابد أنه أغضب الأشخاص الخطأ، طوال فترة انتظارها لم تبعد عينيها عن الموقع الذي يبعد كيلومترا ونصف وهي تمضغ الطعام بروية.

من السطح امتدت السماء إلى ما لانهاية، أطلت على التلال الخضراء التي تحتضن مدن وقرى محافظة إيد ليبو وشوارعها، الجديدة منها والقديمة، العالية والمهدمة، بينها أزقة متشعبة وطرق مزدحمة وأخرى خالية مهجورة. تركت الحرب آثارها على أجزاء منها لونته بالرمادي الشاحب امتزج بخضرة ربيع قصير، لكن هذا لم يمنع السكان بأن يغرسوا شتلاتهم على النوافذ وفوق السطوح ترافق الغسيل وخردتهم التي لا يستطيعون التخلي عنها.

وخلف سور من الآجر الأحمر، يحيط بأرض معشوشبة تناثرت على أطرافها شجيرات برتقال، علا الغبار من عجلات سيارة سوداء فخمة، توقفت في المكان من دون أن يغادرها أحد. قربت زهراء عدسة المنظار أكثر لتر من في داخلها، كان هناك رجلان في الأمام وآخر يجلس في المقعد الخلفي من ملابسه يبدو أنه رئيسهما. وبعد لحظات دخلت سيارة

كاديلاك زرقاء، فترجل سائق السيارة السوداء أولا وفتح الباب الخلفي لسيده، كان رجلا قصير القامة بشعر كستنائي خفيف، وظب سترته ثم أزال نظاراته الشمسية.

أما السيارة الزرقاء فقد خرج سائقها أولا وقام بنفس الشيء إلا أنه ساعد سيده العجوز على النزول. وقف منحني الظهر واضعا كفيه على عكاز خشبي مصقول. تزاحمت التجاعيد في وجهه الدميم وتضعضعت ثنايا الجلد بينها، يتوسطها أنف معقوف كبير تحته شارب أبيض مرتب، أضفى مع الحاجبين الكثين وقارا وهيبة. كان يرتدي سترة بيضاء عريضة وسروالا رماديا يصل إلى منتصف حذائه البيطالي.

نظرت زهراء إلى صورة الهدف مرتين وهرشت شعرها في حيرة، تساءلت لما أحد يريد قتل رجل في عمره، فنوبة قلبية وشيكة ستفي بالغرض، لكن ما شأنها فهي في حاجة إلى المال. موضعت رأسه بمركز العدسة، وبما أنه عجوز لم يكن يتحرك كثيرا.

وفي لحظة رفع بصره إلى الأعلى في اتجاهها ونظرة مريبة في عينيه المبيضتين.

أبعدت عينها عن المنظار وجلة ثم جابت ببصرها في زوايا السطح وأرهفت السمع خوفا أن يكون أحدا يتعقبها. لا تكوني سخيفة، فقد تهيأ لها ذلك بالتأكيد.

صبرت أكثر وراقبته يتبادل مع رفيق موعده حديثا الذي يبدو سريا ليقيماه في موقع كذاك. كان رفيقه ذي البذلة السوداء المخملية ينفخ في السيجارة الكوبية، مرة يقهقه ومرة يدور حول نفسه رافعا يديه أما هو فيهز رأسه موافقا ثم يتحدث.

تصافحا وقد بدا أنهما انتهيا من حديثهما، وضعت سبابتها على الزناد وقبلت البندقية هامسة: «أنا واثقة بأنك ستؤدين دورك على أكمل وجه» كانت زهراء تصيب الرأس دائما، تصوب نحو الهدف فتأخذ شهيقا وبلمسة ناعمة على الزناد عند الزفير تنطلق الرصاصة في المسار الذي حددته.

وانفجر دماغ العجوز متطايرا على هيكل السيارة في دهشة من معه. وظبت أغراضها بسرعة وأعادت المكان إلى ما كان عليه دون ترك دليل على وجودها فيه وغادرت سعيدة لحصولها على نقود سهلة كهذه.

****

قيل إن الاسم هوية الوجود، فإذا ابتغى إنسان نسيان ما لا يُنسى، فليس أمامه إلا رمي الأسماء بين نفايات الزمان كما رمى بذكراها، تلك التي لن يذكر اسمها. لن يصف نفسه بشاعر أو حتى متعلم، فآخر كتاب اضطر لمطالعته كان من المنهج الدراسي في آخر سنة من المتوسطة، قبل أن يرسب في الامتحان ويتخلى عن الدراسة من أجل مساعدة والده الذي كان يعمل سائقا أيضا.

يعمل سلام مرات في نقل المسافرين وفي أخرى في نقل البضائع، مرة يرافق عرسا وحينا جنازة. ليس لديه الكثير ليخسره ويرضى بالقليل مما يكسبه. يعيش مرتاح البال يكسب رزقه يوما بيوم، ويصل رحمه بزيارة أمه الحنون القاسية وأبيه الذي يحب أبناءه وخردواته بنفس المقدار، أما إخوته فتشتتوا في أصقاع العالم كلاجئين ولم يفكر يوما أن يحذو حذوهم.

رفع المزلاج من سلك خارجي، فقد فقدت الهوندا من طراز 95 مقبض الباب وانبعج إطارها إلا أنها لا تزال تعمل بنفس الكفاءة وتكفيه لجني قوت يومه. اتكأ على مقدمة العربة يمشط شاربه وشعره الأسود الكثيف الناعم وهو يدندن لحن أغنية مصراوية: «الله عليك يا سيدي، قلبك ذاب في يدي» ورتب قميصه بلون الزبدة الطازجة ثم أشعل سيجارة ينتظر ريثما يكتمل عدد المسافرين الذين سيعود بهم آخر النهار.

دخلت الحرب الأهلية عامها الحادي عشر أو كما يسميها الحالمون 'الثورة' التي تحولت إلى كابوس بلد بأكمله. قضاها سلام باختيار جهة الحياد وعدم التعمق بأمور سياسية أو وطنية، فهذه الأشياء لا تشبع جوعان ولا تدفئ بردان. كان يتأقلم مع وضعه كلما نزح من منطقة إلى أخرى، من ريف دمشقيتو إلى حلبا ثم شمال حاما ليستقر بإيد ليبو، وفي كل مرة يبدأ عمله من جديد كأن شيئا لم يكن، وقد كان الأمر أسهل له عكس الأسر التي تملك أطفالا، فقد فضل سلام العيش وحيدا فمن يريد أن يتزوج وينجب في هذا المكان إلا المجنون.

فالحياة في سورمادا كلها عبارة عن صراع للبقاء، بيد أن الإنسان هو الكائن الأول في التأقلم على البيئة المتغيرة، يتغير جلده بإتقان كالحرباء ويصبر على المعاناة كصبر الجمل على عطشه ويظل يتكاثر كالأرانب. الناس تموت بالمئات من جراء عاصفة الأسلحة والجوع لكن هنالك صغار ورضع في كل دقيقة، زواج بالخيم، وزواج قاصرات واغتصاب بالعشرات وزواج الفاتحة وما أسهله من طريقة. خلاصة القول، الإنسان يتكاثر فإن لم يكن بالقبول فبالقوة. هؤلاء الأطفال يكبرون ويتغير شيء ما في حمضهم النووي، جزء يتعلق بغريزة البقاء التي تقوى أكثر وأكثر.

وكثيرون حاولوا شرح الوضع السياسي في سورمادا، محللون وسياسيون وأيضا بائع القهوة الذي أوقف عربته بجانب بائع الفلافل أبي سعد قائلا: «يا أخي في عندك الضبع ضد المعارضة والشيعة ضد السنة، والتركيش ضد الأكراد والتركيش والأكراد ضد الجهاديين والبيرانيين ضد السواعدة، وطبعا لا ننس الروش ضد المعارضة والإسلاميين السنة، والأمريكان يدعمون التركيش وأعدائهم الأكراد في نفس الوقت كما يقومون بمحاربة الجماعات الإرهابية... انتظر، أظن أنني نسيت... من لم أذكر؟»

فأقحم سلام نفسه في الحديث: «يجب أن تضع البغلاني في كفة لوحده فهو حليف للتنظيم ومقرب من تركيشا ويعقد الصفقات مع من هب ودب» وأشار إلى صورة البغلاني، قائد الجبهة الإسلامية، المعلقة على إحدى الجدران، استطاع بلحيته أن يضفي بعض الهيبة على وجهه البيضاوي المخنث ولون بشرته التي بلون جلد البغل الأمهق، كانت عيناه الدائريتان تبدوان كأنهما لتلميذ كسول لكنهما تخفيان مكرا صامتا بين رموشه البنية. قاتل مرة أو مرتين بأسلحة تنظيم داشع أو على الأقل من التمويل المخصص له، ثم مدد رجليه وشرب الشاي مع الساسة الأجانب لتكون أكبر حصة من إيد ليبو تحت سيطرته.

أجاب صاحب القهوة بلهجته الشمالية، فقد كان من سكان إيد ليبو الأصليين: «البغلاني ليس الحاكم الوحيد هنا؛ ففي أقل من عشرة آلاف كيلومتر مربع من الشمال السورمادي، حشروا عشرات من فصائل المعارضة المسلحة، كل واحد منها يرغب أن يحكم على مزاجه، يتصارعون ويتناحرون فيما بينهم. وبين الحين والآخر يأتي الضبع بجيوشه المستعارة يرمي بقذائف روشية تقتل المدنيين الذين ليس لهم ذنب وسبحان الله، تولد فصيلا معارضا آخر»

فقال أبو سعد: «الضبع يحكم جنوب البلاد بالبراميل المتفجرة والبغلاني يقمع الخلق بالشمال بالبنادق والمفخخات، ما تركوا لنا خيارات، يا إما الضبع يا إما البغلاني، لَييك، لما ليس عندنا حكام آدميين، كلهم حيوانات! حيوانات!» واهتز كل جزء من جسده، صلعته، وجهه وبطنه الكروي كقرص فلافل.

فقهقه سلام مجيبا مشيرا إليه: «إذا كان الشعب حيوان، فلن يحكمه إلا حيوان»

فرفع أبو سعد إصبعه متوعدا: «أمثالك هم الذين خربوا البلد. لَييك، الشعب ميت من القهر تقول عنه حيوان، هيا ادفع ما عليك، هيا»

فأمسك سلام رأسه وقبله معتذرا وقال: «أنا قصدي، إذا كان الشخص ليس قادرا على ثورة، فلما يقيم ثورة، لكن ما العمل؟

الأوائل الذين رفعوا شعارات الحرية، نصفهم مات أو قابع في سجون الضبع ونصفهم الثاني هرب إلى خارج البلاد»

قاطعت امرأة ثرثرتهم ودنت من سلام قائلة: «خاي، أذاهب إلى خربة اللوز؟»

فرد وقد أشعل سيجارة ثانية بولاعته الفضية وأعادها إلى جيبه الخلفي: «نعم أختي، ادفعي وانتظري هنا ريثما يكتمل العدد»

دفعت ثلاث ليرات تركيشية ثم سألته وقد برزت في صوتها بحة أنثوية أضافت جاذبية غامضة حولها: «أنا في عجلة من أمري، ألا تستطيع الانطلاق قريبا؟»

فرفع كفيه مجيبا: «ما في حيلة، هكذا تجري الأمور»

تنهدت ووقفت إلى يمين عربة الفلافل قرب كيس الزبالة. كانت عينه مرة على البائعين اللذين لم يتوقفا عن الجدال ومرة يرمقها من جانب عينه اليسرى وهي تدور حول نفسها منتظرة، رمت بحجر ملاعبة إياه بقدمها في حركة طفولية، فتاة في سنها يجب أن يرافقها أحد.

كانت صبية يافعة بحاجبين مشعثين وعلى جانب وجهها آثار خموش قبيحة تواري تحتها جمالا لم يخف على عيني سلام، كشف الشال المنزلق عن شعرها الأسود الفاحم وانسدل بقصّة ثائرة فلا هو قصير ولا هو طويل، ناعم هادئ من الأعلى

ومتموج عند الأطراف. كانت عيناها بلون الزمرد تشد الناظر إليهما، لوزيتان متحلّيتان بأهداب سوداء كالكحل. واحمر الخدان من حرارة الأجواء فأضفيا على وجهها لمحة براءة طفلة أما غمازة الذقن البارز أضفت على ملامحها سيماء الرجولة في تناقض فريد. كان لها أنف أفطح لكن متناسق كأنه اقتطع من منحوتة آشورية قديمة، وانكشف بعض من بشرتها القمحية النضرة من عنق العباءة الواسع والتي لا تناسب مقاسها.

كان صاحب القهوة لا يزال يسرد ما سمعه من المحللين على القنوات الإخبارية قائلا: «تنحدر الجبهة وداشع من السلالة نفسها، يعني أن الطرفين يستسقيان من أسس تنظيم الحمض الإسلامي» وهمس خوفا من أن يسمعه أحد: «فالبغلاني ما هو إلا واجهة سياسية للأمير أبو حمزة الأسدي من تنظيم داشع الذي يدعم الجناح العسكري»

فعقب أبو سعد: «ليس هناك من خرب الثورة قدر الدواشع، قضوا على آخر أمل لدى الناس في حل سياسي، انظر إلى ذلك المسمى أبا يزيد أصبح أشهر من علم» وبصق على الأرض مكملا: «الله يلعنه على عمائله الشيطانية»

سمع سلام عن أبي يزيد هذا أكثر من غيره، فمؤخرا يتكرر اسمه عشرات المرات على شاشات التلفزيون بعدما تم القبض عليه من طرف الأكراد.

قال صاحب القهوة: «إيه والله، هذا الرجل المدعو أبو يزيد، فريد من نوعه» واسترسل في حديثه وهو ينش على بضاعته: «روى بعض المحللون أنه تدرب في تالبان وتخرج على يد جهادي معروف. تنوعت الروايات عنه لكن أغربها التي تتحدث على أنه عميل لأشراريل يخدم الموشاد، وأخرى تقول إنه عميل لدى الاستخبارات الأمريكانية وقد عاش في روشيا متخفيا لتنتهي القصة بأن من قبض عليه مجرد شبيه وأن الحقيقي لا زال طليقا»

رد أبو سعد الذي انهمك في إعداد سندويشة فلافل من أجل زبون: «وماذا بعد؟ البلد تراجعت أربعين سنة للوراء، وها هم الأكراد بالشرق يدّعون الديموقراطية، يبذرون الوقت والمال في سجن هؤلاء الدواشع، الكل يعرف أن مصيرهم الإعدام. مثل أبا يزيد هذا، ذبح أولاد الشيعة بالعشرات، قتل مئات الأبرياء في التفجيرات، هذا الإرهابي لا يحتاج سجنا ولا محاكمة، السجن المؤبد قليل عليه، الموت لن يشفي غليل الآلاف الذين تعذبوا من جراء ما فعله أمثاله. مثل هذا المجرم يجب أن يصلب وتقطع يديه ورجليه ويعلق...» ثم بتر كلامه حين رأى كيس زبالته يحترق وبالقرب منه ما يحتاج من بضاعة وزيت فرمى ما بيده وهب مرعوبا ليطفئ النار.

تدخل صاحباه بسرعة وصبوا على النيران الماء بالأوعية المعدنية الكبيرة المستخدمة للخلط والقلي. تفحم صندوق الخبز واحترق جزء من العربة، لم تنطفئ النار حتى أفرغ سلام كل ما في برميل الماء عليها.

أمسك أبو سعد رأسه ولعن حظه ناظرا إلى رزق يومه وقد تبخر في الهواء، فقال بأسى: «الحمد لله على كل حال»

طبطب سلام على كتفه وواساه قائلا: «سيعوضك الله أخي، الله كبير» وأخذ سيجارة أخرى وهم بسحب ولاعته من جيبه لكن لم يعثر عليها في مكانها وبدلا من ذلك وجدها مرمية على الأرض، ثم لمح الصبية تبتعد بوجه غاضب، ولم ترجع رغم أنها دفعت أجرة الميكروباص.

****

سجن الحكسة أيار X021

احتكت قطعة من الورق مع الرصيف جرفتها ريح دافئة وصدح مواء قطة كبكاء رضيع في أرجاء الشارع الخالي. نظر سامي إلى ساعته الرقمية التي تبعث بضوء أحمر وسط السواد الضبابي تجعل من وجهه يبدو أكثر كآبة وقد أشارت إلى الواحدة إلا ربعا. انطلقت أصوات الحديد

الصدئة للأقفال بتتابع تكسر سكون الليل، نظر الرقيب في كلتا الجهتين ليتأكد من أن سامي قد قدم لوحده وفتشه قبل الدخول ثم حدق فيه بحقد قائلا: «الاتفاق هو الاتفاق، ستقوم بالتخلص من كل الصور»

أجابه سامي بابتسامة فاترة، كان من السهل قرصنة صفحة الرقيب الخاصة على موقع إباحي، متسائلا كيف يمكن للمرء أن يكون غبيا إلى هذا الحد، فألح الرجل في غضب: «أريد أن أسمعها منك»

أجاب بهدوء: «صدقني، لا أنوي الاحتفاظ بتلك الصور المقززة»

تبع الرقيب الذي يمشي بعيدا عن ضوء مصابيح السجن الكبيرة قاطعا الساحة نحو الممر الطويل. مرا من ثلاث أبواب حديدية مدعمة بقفل رقمي يفصل بين كل اثنين مخدع مجهز بالكاميرات ثم سلكا درجا إلى الأسفل. أكمل الرقيب الطريق إلى السرداب المظلم وفتح بابا حديديا آخر بعدما أدخل الرمز السري فاشتعل مصباح من نيون بضوء خافت. كان صوت جزمة سامي عاليا يرن بين الجدارين الذي لا يفصل بينهما أكثر من متر واحد، ومرت من جانبه بعض الجرذان التي تفاجأت بدخوله تهسهس ساخطة.

خشخش الرقيب بسلسلة مفاتيحه وقبل أن يفتح باب الزنزانة الفردية قال: «أمامك عشر دقائق لا غير»

سُمعت صلصلة السلاسل حين خطا سامي إلى الداخل، كان المكان كأنه مستوحى من سجون قصر من القرون الوسطى الأوروبية الذي زاره في إحدى رحلاته المدرسية. ثقل السلاسل يدل على خوف الجميع من السجين الملتحي، نما بعض الشيب حول شعره الملولب الذي يصل إلى قفاه، واختفت ملامح وجهه تحت لحية كثيفة شعثاء.

لم يعره السجين اهتماما، كان جالسا في زاوية من الزنزانة المربعة التي لا يتجاوز عرضها متر ونصف. بقي سامي واقفا قرب الباب فرغم أن الرجل نحيل نحولا شديدا والتصقت أسماله على جسده من أثر التعذيب، لم يستطع مقاومة القشعريرة الباردة التي انتابته وهو قريب من مجرم متوحش مثله ذائع الصيت.

يدعى إياد حسن ولقب نفسه بأبي يزيد بعدما حمل السلاح ضد قوات النظام إلى جانب جيش الثوار، وتطرف في أسلوبه بانضمامه لداشع في العام الثالث للثورة.

– «أرجو ألا أكون قد سببت لك إزعاجا سيد أبو يزيد» لم يعره السجين أي اهتمام، الموقف الذي توقعه سامي والذي سيتغير بعد لحظات، استطرد قائلا: «أدعى سامي صليبا وقد جئت

إليك بعرض سيخرجك من هذا الجحر، ولن يكون عليك إلا تقديم معلومات بسيطة عن السلاح الذي تستخدمه أو ما تسمونه» وصمت لبرهة قبل أن يضيف بنبرة أوضح وأوطأ: «المادة البيضاء الشبح»

فحصه السجين بعينيه الغائرتين لثانية ثم عاد ليغمضهما في وهن بدون أن يبدي أي شيء، فأكمل سامي: «هناك شخص مهتم بهذا، مستعد ليقدم لك ما تريد مقابل ما تعرفه عن السلاح» وعم الصمت لفترة أطول مما ينبغي.

– «ألا تود معرفة المزيد عن الصفقة؟ أعدك أنك ستكسب الكثير» عقد ذراعيه وأضاف محاولا لفت انتباه الجهادي: «المادة الشبح البيضاء، أول ظهور لها كان بالسنة الثالثة من الثورة، المكان تل هوى، في هجوم الدواشع على قوات النظام. أو على الأقل كان أول تجربة ناجحة، بالتأكيد هذه أشياء تعرفها مسبقا» وانتظر جوابا أو ردة فعل بسيطة لكن السجين لم يكترث: «مواجهة عقوبة ثقيلة كالإعدام ليس أمرا هينا، لكن العرض الذي أقدمه سينقذك من هذا المصير مقابل المعلومات»

تحركت السلاسل المحيطة بقدمي أبي يزيد ورد بصوت عميق من دون أن ينظر إليه: «اذهب واسأل أحدا غيري يا بني، فأنا لا أعرف عما تتحدث عنه»

– «بل تعرف تماما عما أتحدث، السلاح موجود وأول التجارب أقيمت هنا في سورمادا وعلى يديك» اقترب جرذ مشعر من حذاء سامي فأبعده ووضع يديه في جيبه وقد أصابه الضيق من وجوده في مكان قذر حيث أوصله البحث عن السلاح الشبح، فبعد الحرب الأهلية وتدخل روشيا صارت الأراضي السورمادية ميدانا ملائما لتجربة كثير من الأسلحة الجديدة والتقنيات لتسويقها للدول المشاركة. غير أن هذا السلاح تم رصده أثناء قتال أكثر التنظيمات الإرهابية فصيل 'أنصار الله' وذلك على يد قائده أبي يزيد الشامي.

دق الرقيب على باب الزنزانة مشيرا أن وقته شارف على الانتهاء، فقال سامي: «إضافة إلى خروجك من السجن، سيقدم لك أيضا مبلغ لا بأس به ويمكنك المساومة إذا شئت فعميلي شخص سخي جدا، فلما لا تفكر في الأمر قليلا وهكذا سيكون حديثنا مثمرا المرة القادمة»

لم يلق ردا منه وكأنه غير مرئي بالنسبة له لكن سامي يعلم أن لكل شخص بطاقة تفاوض، ترتبط بمعلومة بسيطة حساسة تسهل من التحكم به في نقطة معينة من دالة معلوماته الشخصية. قد لا يمتلك العنصر الأساسي من معادلة أبي يزيد بعد، الذي رغم مواجهته لعقوبة قصوى لا يأبه بطريقة سهلة ليتحرر من سجنه.

دق الرقيب الباب من جديد وبقوة أكبر متوترا، فلم يكن أمام سامي إلا الخروج، وعند فتح الباب، تمتم السجين: «لا تبحث أكثر فلا مصلحة لك في هذا» التفت سامي إليه نحو الزاوية المظلمة ولم يتبين من نبرته إن كانت نصيحة أم تهديدا.

رافقه الرقيب إلى الخارج ثم قال: «إذن؟ لا صور بعد الآن»

مد له ذاكرة الفلاش وقبل أن يمسكها قال: «ستؤمن لي مقابلة أخرى كما اتفقنا»

– «ليس باستطاعتي ذلك بعد الآن، السجين سيتم نقله عما قريب»

– «حقا؟ أتعرف إلى أين؟»

– «الله أعلم فأنا مجرد موظف بسيط»

حسن لم أتوقع هذا، لم تسفر محاولات

رغم محاولات سامي مع المجاهدين الذي قاتلوا إلى جانب أبي يزيد عن أي خيوط تقربه من مكان السلاح، وها ذا أبا يزيد الشخص الذي يملك المفتاح لإتمام مهمته بنجاح سيفلت منه. فقال للرقيب: «أريدك أن تبحث لي في الأمر»

– «لقد أتممت جزئي من الاتفاق وبيننا كلمة شرف»

سلمه سامي الفلاش قائلا: «معك حق، فالنسخة الوحيدة معك الآن ولكن...الصور لم تكن كل شيء للأسف، تعرف ما أقصد، مقطع الفيديو، الزمان: الخامس عشر من حزيران الماضي، المكان: ملهى أبو العيش. إنك حقا شخص محب للكاميرا»

– «يا ابن الشرموطة...»

عبس سامي في وجهه: «لا داعي للألفاظ القذرة، عليك أن تبذل جهدا أكبر وإلا تعرف ما سيحصل»

خربة اللوز ريف إيد ليبو الشرقي أيار X021

'فلتزل الدنيا ولتفنى تنظيماتنا وجماعاتنا ومشاريعنا ولا يراق على أيدينا دم مسلم بغير حق'

رُسمت قولة أمير الجبهة على جدار بأحرف قوطية كغيرها من الشعارات المتطرفة: 'الجهاد باب من أبواب الجنة'، 'الديموقراطية دين الغرب'، 'المرأة كلها عورة حتى ظفرها'، 'الشيعة أعداء الإسلام'، 'يحرم حلق اللحية'، 'العلمانية كفر'، 'لا يدخل الجنة نمام'، 'الاختلاط حرام'، 'تنظيم قاعدة الجهاد معا لتحكيم شرع الله'...

زينت كل شوارع البلدة من جدران البنايات وعواميد الكهرباء إلى لافتات المحال، شعارات لا تنتهي وفي كل مناحي الحياة، كان بعضها أقوال للبواطني، منظّر تنظيم الحمض الإرهابي، لكن مع بداية تلطيف علاقات الجبهة مع العالم الخارجي محي اسمه وخلّف وراءه بقعة ملطخة بالطلاء.

لم تكن مجرد كلمات رنانة وإنما قوانين وقواعد يجب التزامها. لكن عند جني المال كانت الجبهة تجد دائما مسوغا شرعيا كابتكار البطاقة الإسلامية التي يصل سعرها إلى مليوني ليرة، تتيح لحاملها التجول دون استجواب عند حواجز الشرطة الإسلامية. يطيل المرابطون عندها النظر إلى سامي فشعره الأشقر الفضي وكنيته 'صليبا' تثير فضولهم بيد أن البطاقة تلزمهم بتركه يمر من دون سؤال.

أوقف سامي دراجته عند مغسل ومشحم 'الجبل'، يقع أسفل منزل قيد الإنشاء، جزء من واجهته بني بثلاث أنواع من الطوب تبين الفواصل الزمنية لانقطاع البناء أو إعادته، أقفلت النوافذ بالكرتون بدل الزجاج ومن السطح تمتد بعض الكابلات إلى الداخل.

كان رياض في انتظاره، أرخى كوفية مخططة بالأبيض والأحمر على كتفيه وارتدى تي شيرت أبيضا مبقعا بشحم المحركات، تميز بذقن حاد مدبب ومنطقة ما بين العينين

ضيقة، ويهمل حلق ذقنه فنبت له شعر غير متجانس يجعل وجه شبيها بوجه الجرذ. وقبل أن يشعل سيجارة عرض عليه واحدة فرفضها سامي بأدب. في عالم موازي كان يمكن إطلاق على رياض صفة مسؤول علاقات عامة لاتساع دائرة معارفه وتشعبها وطريقته في إيجاد قنوات خفية للتواصل.

التفت سامي يمحص الشارع قليل الحركة وقال: «أسيأتي؟»

– «تدخل في الموضوع مباشرة، ألن تسألني عن حالي، عن صحتي؟» ونفث رياض الدخان: «سيأتي فأرجو ألا تغضبه، فلدي سمعة للحفاظ عليها ورأس أريده أن يبقى ثابتا في مكانه»

بعد حوالي ربع ساعة، توقفت سيارة تويوتا بالقرب منهما، نزل منها رجل ضخم الجثة ونفث بلغما سميكا على حافة الرصيف المتسخ. تقدم نحوهما يمشي نافخا صدره إلى الأمام. كان واثقا ليحضر إلى الموعد وحيدا ولم يظهر أنه يحمل سلاحا وبالرغم من ذلك أماط سامي سترته قليلا من الجانب ليُظهر سلاحه المعلق.

ألقى المقاتل الداشعي السلام بلهجة ثقيلة، إنها اللهجة العاشرة إن لم تكن العشرين التي سمعها سامي في أرجاء المحافظة، اختلفت لهجات ولغات سكانها، وتحققت ضمنها أمة عابرة للقارات عنفوانها الحرب والفقر. رغم أن البلدة واقعة تحت سيطرة الجبهة إلا أن مقاتلي داشع كانوا يتحركون بحرية في

أرجائها عكس المناطق الأخرى شريطة ألا يظهروا انتمائهم علانية كباقي الفصائل.

دعس رياض على عقب السيجارة وهو يقدم سامي إلى زبونهما المنتظر فرفع الرجل ناظريه قائلا: «هذا هو مخبرنا؟» وأطلق آهة استهجان وسأله: «كم عمرك يا فتى؟»

أجاب رياض بدلا منه مشعلا سيجارة جديدة: «ما يكفي لينبت الشعر على ذقنه. الفتى في حوزته معلومات ستفيدك وبالثمن الذي تريد»

مسح الرجل حافتي فمه بسباته وإبهام يده اليمنى ثم أمر سامي قائلا: «فلتنطق»

رد سامي: «ادفع أولا»

قهقه المقاتل واهتز صدره المنفوخ ثم رد وهو يفتش في جيب سترته الداخلي: «لا بأس، فقد قال الرسول أعطوا الأجير أجره عندما جف أو سيجف...» واختلطت بقية المقولة في فمه فعاونه رياض الذي لم يكن يحفظها أيضا وعيناه على الظرف المكتنز بالمال مرددا: «صدق رسول الله»

مد الظرف إلى سامي لكنه لم يمسكه فأخذه رياض مبتهجا وبدأ يعد الدولارات والسيجارة معلقة في طرف فمه. رغب من تبقى من فصيل أنصار الله البحث عن معلومات تساعدهم

لتحرير قائدهم أبي يزيد، فأدرك سامي سبب رفضه للصفقة التي عرضها عليه، فهو في انتظار رفاقه. فقال: «حسب ما فهمت، تريدون طريقة لاقتحام سجن الحكسة»

رد أبو سلمان: «ألديك طريقة للدخول إلى هناك؟»

– «لا داعي للذهاب، فالأكراد عقدوا اتفاقية سرية مع جيش التحرير الوطني وتمت مبادلته ببعض الأسرى»

ظهرت علامات الحيرة على الرجل وكان مصيبا، فلم الأكراد يتخلون عن أسيرة دسمة كالجهادي الكبير أبي يزيد، وضع يده على أذنه اليسرى متظاهرا أنها تحكه فلاحظ سامي ملقط صوت تحت شعره الكث وهو ينتظر الأوامر. سأله بعد أن أصغى لما يقال له: «أتعرف مكانه الحالي؟»

اتضح أن الرجل مجرد واجهة والعقل المدبر يختبئ في مكان ما، لكن سامي أراد أن يتأكد فرد: «يمكنني أن أبحث، بعد دفع أجر بسيط بالطبع»

– «أتسخر منا يا لقيط؟» توقف رياض لحظة عن عد النقود ورفع ناظريه نحو أبي سلمان العابس

قال سامي بصوت هادئ مطمئن: «فلتنظر للجهة الإيجابية، بفضل ما أخبرتك به فلن تحتاج لاقتحام سجن الحكسة، سجن مشدد الحراسة وصعب اختراقه، وبفضل ما سأقدمه من

معلومات ستصبح عملية تحرير رفاقكم في متناول أيديكم وهذا ما ستدفع لأجله»

– «تظنني أحمقا يا فتى»

لكز رياض سامي الذي لم يأبه له وراقب سلوك الداشعي قائلا: «هذا عمل إضافي ويتطلب جهدا أكبر، لذلك سيكون الأجر مضاعفا» وانتظر إن كان سيأخذ قرارا من تلقاء نفسه، وفي طرفة عين، انطلقت رصاصة لفحت حرارتها خد سامي الأيسر وأصابت عقب سيجارة رياض الذي سقط على أسفل ظهره مرتعبا وقد تطايرت من يده النقود في الهواء.

قهقه الرجل الضخم قائلا: «ما العمل؟ لقد أغضبتما رفيقي، وأؤكد لكما أن صبره أقصر من قامته» رفع سامي رأسه نحو البنايات البعيدة ثم نظر إلى رذاذ السيجارة التي فجرتها الرصاصة من دون أن تخدش صاحبها، فتبين سبب ثقة الرجل الزائدة الذي لم يحتج سلاحا فمن يحمي ظهره قناص محترف.

قال أبو سلمان: «إليك الأمر، ستتكلم لتستحق أجرك الذي دفعتُه»

لم يتخل سامي عن هدوئه، ربما فاجأته طلقة القناص لكن توقع الأسوأ يوم دخوله إلى سورمادا، رد بنبرة هادئة: «جيش

التحرير يفكرون في القيام بمحاكمة علنية لعناصر فصيل 'أنصار الله' وسيكون أبو يزيد واحدا منهم»

– «أتقول محاكمة علنية، ما هذا الخراء؟»

– «التفسير المنطقي أن جيش التحرير يريدون التباهي أمام العالم وإثبات قوة سيطرتهم على منطقتهم»

– «أعوان تركيشا اللعناء»

– «ما يهم أن المحاكمة مجرد شكليات والنهاية معروفة» ألقى الرجل نظرة جانبية نحوه مدركا مقصده فالنهاية هي إعدام العناصر، وهكذا تحقق لسامي ما يريد وحان الوقت ليلقي طعمه: «لكن هذا يمنحنا فرصة كبيرة أيضا»

– «ماذا تقصد؟»

– «المحاكمة العلنية ستتم في كفر توما منطقة سيطرة جيش التحرير، وهذا يعني أنه سيتم نقل السجناء»

– «إذن؟»

كان الرجل الضخم صاحب إدراك بطيء فتنهد سامي مجيبا: «هذا يعني أنك لن تكون في حاجة لمعرفة مكان احتجاز رفاقك. كل ما علينا هو الحرص على الحضور يوم المحاكمة»

تظاهر الرجل بالتفكير وهو ينصت لما يقال له ورد بعدها: «ومتى سيكون ذلك؟»

– «مصادري ستحرص على تأمين هذه المعلومات» وقد كان يقصد الرقيب المنحرف

– «إذن أرسل المعلومات، عندها فقط سأدفع لك أجرك الذي تستحق»

ولم يتنظر ردا وعاد أدراجه فانتهز رياض الفرصة ليلتقط الأوراق النقدية المرمية على الأرض، كان رجلا بسيطا يحب الربح السريع ولا يطرح كثيرا من الأسئلة، ساذج بعض الشيء، لكن هذا ما يجعله مناسبا. فقوة المال لا تضاهي قوة امتلاك المعلومات فكل ما يحتاجه المرء أن يجيد استخدامها. لو امتلك معرفة أكبر حول أبي يزيد لكان امتلك ورقة تفاوض أقوى تجعله يلين، حقا ألا يهمه المال؟ فأغلب من قابلهم كانوا من أمثال رياض.

قدم له كأس قهوة داخل مرآبه، وسحب كرسيين قائلا: «لم يكن عليك أن تثير حنقه، اللعب بالنار مع هؤلاء سيؤدي إلى هلاكنا»

جلس سامي قبالته ورد: «لم يكن ليؤذينا، فإنه في حاجتنا» لهذا أزعج نفسه بالحضور من المقام الأول، وأخذ رشفة من الكأس

– «وإن يكن. إنك جاهل يا فتى، أبو سلمان ذاك أقل ما يمكنك الخوف منه»

توقف سامي عن الشرب قائلا: «تقصد القناص»

رشف رياض من سيجارته مطولا ونفث الدخان من ثقبي أنفه الواسعتين: «اسمه علي على ما أظن، من حسن حظي لم ألتقيه لكني سمعت الكثير عنه»

استرعى الأمر انتباه سامي فسأله: «حقا؟ وماذا تعرف عنه؟»

استند رياض إلى ظهر الكرسي وأجاب: «يقال إنه كان فتى يتيما إلى أن تكفل به القائد أبو يزيد، تربى على يديه وتلقى تدريبه تحت إشرافه مباشرة، أظنك سمعت بما حصل لثكنة الروش قبل عامين» ودنا منه دافعا كأس القهوة بمرفق يده: «يقال إنه منفذ العملية. يعرف عنه أنه قاتل محترف من الدرجة الأولى، خبير متفجرات واغتيالات وكما رأيت قناص يصيد طرائده على بعد أميال»

تبادرت إلى ذهن سامي تفاصيل عملية السابع من آب التي استهدفت جنودا من الروش، لا تختلف ظروفها عن باقي

عمليات أبي يزيد التي يلفها الغموض والرعب، توقع كثيرا من المبالغات المضافة إلى التفاصيل، إلا أن معرفة المزيد عن هذا المدعو علي قد يقربه من هدفه، وضع سبابته على ذقنه مفكرا؛ إن كان ما يقوله رياض صحيحا فعلي هذا مستخدم آخر للسلاح الشبح. «هل يمكننا مقابلته؟»

– «مقابلته؟ أتمزح؟ لا أحد يعرف كيف يبدو لهذا يسمونه المجاهد الشبح»

– «أليس أبو يزيد المجاهد الشبح؟»

اختلطت في فم الرجل رائحة الدخان برائحة الفم الكريهة وقد تجاوز نصفه الخاص من الطاولة الدائرية الصغيرة مقتربا من وجه سامي أكثر من اللازم وأجاب: «هذا ما يظنه العامة من الناس، أما المقاتلون من التنظيم والجبهة فيعلمون أن أبا يزيد ترك خليفة لا يستهان به، لا بل خطر ذلك الرجل أكبر بكثير» ونفض عقب السيجارة في المنفضة التي لم يتم تنظيفها منذ زمن وأخذ يسرد ما سمع من أقاويل: «فلتسمع هذه الرواية التي لا يعرفها إلا قلة من جماعة الأنصار، اختلف تابعان لأبي يزيد مع علي ذاك، كانا رجلين مخلصين وبسمعة حسنة بين المقاتلين، قيل أن الأمر لم يكن أكثر من نعته بألفاظ غير محببة، أتعلم ما الذي حدث لهما؟ فلتحزر»

وأرغم سامي على الإجابة فقال: «قُتلا»

– «القتل أقل ما يمكن تصوره في هذه الجريمة الشنيعة، في صباح اليوم التالي عُثر على جثتين متفحمتين، رأس كل جثة تفوح منها رائحة الشواظ، المحجرين مسودان، الذي أخبرني قال إنه لم يستطع تناول الطعام لثلاث أيام من هول ما رأى، مع العلم أنه مقاتل عايش من أهوال القتال ما يكفي ليشتد قلبه» وقع رماد من سيجارته على الكأس التي لم يرشف منها من تركيزه وهو يقول: «رغم معرفته للجاني، أبو يزيد لم يفعل شيئا واكتفى بترك علي في حاله»

– «أتعني أن أبا يزيد لا يستطيع التحكم في أفعال تلميذه؟»

هز رياض كتفيه ثم رفع سبابته نحوه قائلا: «لذا أنصحك يا فتى، مهما يكن هدفك لا تعبث مع علي ذاك، لا تعبث مع أي أحد من جماعة الأنصار وإلا لن ينفعك الندم»

كانت نصيحته جيدة لكن مقابلة علي قد يقدم له معلومات باهظة الثمن.

****

تكون الرداء من العباءة، الخمار والطرحة، القفازين والجوارب الطويلة، كلها سوداء اللون تنفر الناظرين. وضعت

الصبية الكيس في الحقيبة قائلة في دهشة: «اثنا عشر دولارا؟»

رد البائع بدون مبالاة: «إيه أخي، ألم تر العارضة؟»

كانت العارضة تنصح النساء بالالتزام بالزي الشرعي، استبدلت منذ شهرين بملصق ضخم ملون ومزين بالزهور يثير الغثيان بدل الذي كان مخطوطا بالأسود. «ثمنها يساوي مصروف نصف شهر لعائلة، هذه سرقة» فعاد البائع يشير للوحة الكبيرة، حيث كتب بجانب عناصر الزي الثمن الرسمي حسب الهيئة الشرعية.

لو أنها تعلمت الخياطة لعدلت من عباءة الأم زهراء لكن المقاس الكبير كان مجرد عذر، فحين ترتدي ملابسها تشعر بحضورها أكثر من أي وقت مضى. لا تكوني سخيفة. ورمت بالكيس إلى البائع قائلة: «لن أضيع المال على خزعبلات كهذه»

كان الفقر والعوز بين الناس أكثر انتشارا ببلدة خربة اللوز. قرب المحل تجمع أهل البلدة الفقراء حول شاحنة المعونات، كان هذا طبع العوام، يفضلون التسول بدل القتال. كان أغلب المتجمهرين نساء ملثمات بالأسود يحاولن أن يسرعن لأخذ الدور قبل انتهاء الكمية. سارت على الجانب الخالي الذي

تبقى من الطريق فصدمتها طفلة، وأخذت تتسابق مع الأخريات، من صغر حجمها استطاعت التقدم إلى الأمام، ووقفت أمام الموزع مادة يديها متلهفة، لكنه تعدى دورها فألحت الطفلة قائلة: «أنا، أنا، الله يخليك»

رد الموزع بنبرة أبوية: «روحي حتى تتخمري يا ابنتي عندها فقط سأعطيك» فجمعت يديها الممدودتين وأمالت رأسها مكسورة الخاطر، تدافع الناس من خلفها فتراجعت رغما عنها.

كانت متسخة الثياب وحذائها رث من كثرة الاستعمال، قبل سنوات كانت الصبية مثلها إلى أن التقت العم أبا يزيد، اقتربت منها وانحنت إلى مستوى طولها قائلة: «أأنت بخير يا صغيرة؟»

لم تفهم الصبية لما على طفلة بعمرها أن تغطي شعرها أيضا، تعلمت أن النساء يثرن غريزة الرجال لهذا عليهن ستر عورتهن لكن ما الذي تملكه طفلة لتثير رجلا بالغا إلا إذا كان به خطب ما.

سلمتها الاثنا عشر دولارا، فاندهشت الطفلة فقالت لها الصبية: «إنها لك، فاصرفيها بحكمة، حسن؟» ونفشت شعر رأسها كما كان يفعل أبو يزيد عندما يمازحها.

كان على الشاحنة رمز منظمة دولية إغاثية لكن الموزع لم يرتدي شارة أو زيا يحمل الرمز. راقبت تحركاته بفضول في البداية إلى أن لاحظت أن بعض الأكياس التي وزعها أعيد غلقها قبل التسليم. فقامت بتتبعه بالدراجة النارية عندما انتهى إلى أن أوقف شاحنته عند منزل على بعد حارتين.

حمل مع اثنين من معاونيه ما تبقى من حمولة إلى العمارة، داخل شقة في الطابق الأرضي، ادعت أنها ضائعة وسألت واحد منهم عن عنوان اختلقته وألقت نظرة سريعة إلى داخل الشقة؛ كانت مليئة بشتى أنواع السلع التي تحمل رمز المنظمة الخيرية، لمحت بعضا منها قد أعيد تغليفها بعلامات تجارية معروفة. كان الرجل سيبيعها في السوق بالثمن الذي يحدده وخصوصا لسلع مطلوبة كالطحين وحليب الأطفال.

نسيت ما جاءت من أجله وبدلا من ذلك راقبت تحركاتهم طيلة النهار إلى أن وجدت فرصة سانحة للتسلل إلى داخل الشقة. حطمت القفل بطلقة رصاصة، دوى صداها في المبنى غير أن صوت الرصاص أصبح شائعا كصوت محركات السيارات. جالت في أركان الشقة المفروشة وتفحصت ممتلكات صاحبها أما السلع فقد خصصت لها قاعة الجلوس والبهو الفسيح الذي يتسع لمخزون شهر كامل لعشرات الأسر.

جلست على الأريكة تقلب قنوات التلفاز وفتحت علبة بسكويت بالشوكولا. تطلب الانتظار أربع علب إلى حين عودة الموزع مع رجل اتضح من ثرثرته أنه صاحب الشقة.

فتح الباب قائلا: «لن أعطيك أكثر من عشر الأرباح، وإن لم تشأ فلتجد عملا آخر»

دخل الموزع وأجاب: «أهذه هي النخوة يا أخي؟ إني من أتولى القيام بالمهمة الصعبة، يكفيك...» وبتر عبارته حين لاحظ وجودها.

تسلت بنظراتهما المرتبكة لبعض الوقت وهي مسترخية على الأريكة، اندفع صاحب الشقة مهاجما على اللص الوقح حسب تعبيره لاعنا إياه بأقدح الشتائم. سحبت المسدس من جيبها الخلفي بخفة وأصابته بالرأس قبل أن يكمل خطوته الثانية. حاول الموزع الهرب فأطلقت رصاصة أمام عتبة الباب أجبرته على التراجع نحو الداخل ثم أمرته بالجلوس إلى جانبها، سألته قائلة: «لما ليس لديك علبة عصير أو ما شابه؟ من الصعب مضغ البسكويت لوحده لمدة طويلة»

أجاب الرجل فزعا: «من أنت ومن أرسلك؟»

أجابت مبتسمة: «عصفورة حلوة» وسارت أمامه متلاعبة بالمسدس بين أصابعها: «المقاتلون يحاولون الدفاع وتحرير

البلدات من...» وهرشت مقدمة رأسها مفكرة: «لا أدري، من الأمريكان والروش، الضبع والشيعة وتطول اللائحة... والشعب من العوام يحاول النجاة ليوم آخر» ولوحت بالمسدس نحوه: «وأنت تسرق بأخبث طريقة يمكن للعقل أن يتخيلها»

وضع يده على فمه راجيا قائلا: «الله يرحم البطن الذي حملك، لن أعيدها، اضطررت لهذا العمل بعد أن باءت تجارتي، والله لن أعيدها»

– «أعلم، سأتأكد من أنك ستقوم بعملك وإلا سأحرق هذا البيت وأنت في داخله المرة القادمة»

وفجرت التلفزيون برصاصة اهتز لها بدنه مرتعبا، التقطته من عنقه وصفعته ليعود إلى رشده وقالت: «ستقوم بتوزيع هذه المعونات لمن يحتاجها وبالتساوي. لن تفرق بين امرأة ورجل، بين كبير وصغير، بين من يلبس الخمار أو لا يلبس فذلك قراره، إنك تعرف من أقصد»

دور عينيه متسائلا فصفعته ثانية: «الطفلة أيها المعتوه»

فأماء رأسه في حركة سريعة: «إيه سأفعل ما تشاء فقط لا تقتلني الله يرحم أبوك»

أطلقته وقالت: «إذا حاولت ثانية أن تستثني أحدا من عباد الله من خير الله فعلي» وأشارت إلى نفسها: «سيقطعك من الحلقوم إلى الخصيتين»

تمتم الرجل فزعا: «علي الداشعي؟»

– «أوه، يبدو أن سمعتي قد سبقتني، إذن فلتنفذ ما أمرتك به، ولا تسلب الناس حقوقهم» تمعنت في عينيه المرعبتين، يقبع بداخله ظل رجل جبان ورمته أرضا، مرت من جانب الجثة الرجل الثاني وتحاشت الدوس على دمائه، وأقفلت الباب خلفها وهي تدندن.

اتجهت نحو محل حلويات يشتهر بالبوظة المعدة منزليا. اختارت نكهات الكريات المثلجة على مهل، ثلاث كرات شوكولا، وواحدة فريزا وأخرى فانيلا. وانكبت على التهام ما في طاسة البوظة من الحجم الكبير، جالسة عند طاولة في إحدى زوايا المحل.

أخفت القلنسوة السوداء كثيرا من ملامحها كما تخبئ خصلات شعرها الذي طال، أصبح التظاهر كفتى أصعب كلما كبرت في العمر، فالملابس الفضفاضة لم تعد كافية لإخفاء ملامحها الأنثوية، ربما سألتجئ إلى العباءة من الآن فصاعدا، فهزت رأسها، سيُستخف بها، ستغدو امرأة في أعين الناس، ستُحرم من

حريتها وستحد من تنقلاتها، قد اختبرت الأمر عدة مرات وكان الوضع مزعجا لها إلى حد كبير.

أثار دخول مجموعة من التوانسة إلى المحل انتباه الزبائن أما الصبية فشدت القلنسوة إلى الأمام أكثر. علا صخبهم وهم يتمازحون بلهجتهم المغاربية الخفيفة، ميزت حسين من وقفته المشدودة بينهم ولهجته الغليظة وهو يحاول مسايرتهم، أشارت له بتلويحة قصيرة ليعرف مكان جلوسها.

أسند الشاب العشريني ظهره إلى كرسي وتنهد من التعب كعجوز بعدما تملص من المجموعة الصاخبة، نما الشيب على صدغيه فحباه منظرا وقورا، له عظمتي الوجنتين البارزتين وملأت آثار حب الشباب وجهه.

– «كم واحدا سينضم؟» سألته مشيرة إلى المجموعة التي تحلقت حول إحدى الطاولات في وسط المحل مما أدى إلى مغادرة بعض الزبائن المتوجسين منهم، فسمعة التوانسة من الدواشع تثير الرعب في قلوب العوام.

أجاب عاقدا ذراعيه: «أربعة مقابل أجر واثنان مدينان للقائد أبي يزيد» وصمت لبرهة ثم أردف: «أمتأكدة مما تصنعين؟»

تناولت ملعقة محدقة في الإناء وقالت: «إنه الواجب يا صاح»

دنا منها قائلا: «لكن القائد كان واضحا في أوامره، الهرب نحو الحدود التركيشية أأمن في الوقت الحالي»

فحدجته في غضب: «لن أذهب لأي مكان من دون العم، لا يمكننا أن نتركه في الأسر تحت رحمة عملاء الغرب» لو كان أبو يزيد هنا لأنبها على فعل شيء كهذا، تكاد تلمح ملامحه الجادة وهو يحاضرها. فطوال عام تمكن من إرسال رسالة واحدة من السجن لا غير، مفادها أن تمضي مع الأم زهراء نحو مخيم الكرامة والاختباء عن الأنظار، لكن كيف يمكنها الهرب وتتركه وهي تعرف المصير الذي ينتظره. فقبل شهرين تم شنق أزيد من عشرين عنصرا بتهمة الانتماء إلى التنظيم، وكل يوم تصلها أخبار عن أهوال سجن الحكسة وكيف يخرج السجناء جثثا في أكياس من التعذيب وانتشار المرض والإهمال. كانت العملية مخاطرة كبيرة لكن كل شيء يهون إن كانت ستراه ثانية.

تنهد حسين ونظر جانبا قائلا: «إذن ماذا قال أبو سلمان في هذا الشأن؟» فأشارت إلى المدخل حين لمحته آت وهو متأخر كعادته، فعلقت مبتسمة: «ذكرنا القط قام ينط»

اتجه صوبهما وربت على ظهرها مازحا، وفي كل مرة ضربته تطحن عظامها، وقال: «ألا تكبر يا فتى؟ إنك تبدو هزيلا أكثر مما مضى، آخ على جيل الألفية الجديدة كله أقزام»

ردت مازحة: «كوني قزم أفضل من أكون غوريلا»

فضرب أبو سلمان على صدره قائلا: «غوريلا وأفتخر» ثم ارتمى على الكرسي واستحوذ على طاسة البوظة خاصتها وقال: «أرجو أن تكون قد استمتعت بمهمتك الأخيرة؟» قصد عملية اغتيال العجوز، فمن يريد استئجار خدمات علي يتصل بأبي سلمان، ومد الظرف المملوء بالمال قائلا: «ستجد المبلغ كاملا بعد اقتطاع عمولتي وأجرة المخبر»

فقال حسين: «على سيرة المخبر، أتثقان به؟»

رد أبو سلمان: «أثق برياض فهو واحد من معارفي كما أنه خبير في هذا الشأن»

أطلق حسين آهة ساخرة وعقب: «واحد من معارفك؟ بالتأكيد سُمعته ستكون مثل الزفت»

– «وأولهم أنت» ودنا منه متحديا إياه

فقاطعتهما الصبية قائلة ببرود: «يمكنكما قتل بعضكما عندما ننتهي من العملية» وفردت ورقة منكمشة مليئة بالخربشات: «حسب معلومات المخبر سترافق عربة نقل السجناء ثلاث سيارات أمنية. أبو سلمان سيقود مجموعة الاقتحام وحسين ستقود من تبقى لتأمين طريق الخروج أما أنا فسأتولى أمر المتفجرات» وهرشت أجمة شعرها الأمامية مفكرة: «بداية

الهجوم ستكون عند مفترق الطرق فعندها ستضطر عربة النقل لخفض السرعة، ستنفجر السيارة الأولى وتنحرف. ثم ستهاجم عناصر من المجموعة الأولى من الخلف، ومن بقي معك يا أبا سلمان سينضم إلي لمحاصرة العربة وفتحها، وهنا يأتي دورك يا حسين، ستعطلهم قدر الإمكان لكي لا يتعقبوننا» ووضعت قبضتها على الطاولة متحمسة: «وهكذا سننفذ عملية تحرير الغراب» وشرعت يديها منتظرة أن يبديا إعجابهما بتخطيطها المتقن.

فقال حسين متسائلا: «من الغراب هنا؟»

هز أبو سلمان كتفيه وقال: «غراب أم دجاجة؟ ما الفرق؟ موعدنا بعد غد بكفر توما على العاشرة صباحا» وقام مودعا إياهما: «علي الذهاب قبل أن تشتاق زوجتي الجديدة إلي»

فقال حسين: «كم وصل عدد زوجات ذلك اللعين إلى حد الآن؟»

فأجابت وقد أمالت رأسها: «أظنها السابعة أو الثامنة، لقد توقفت عن العد. ما يهم أنه عند كل عقد قران يعد لنا وليمة، إننا نستفيد أيضا»

– «تماما، إنه سخي، الخصلة الوحيدة التي تجعلني أستحمله» وأخذ يدق بإصبعه على الطاولة بتوتر وأضاف بنبرة أخفض: «على ذكر موضوع الزواج، ألازلنا عند اتفاقنا؟»

ندت شفتيها عن ابتسامة مصطنعة وردت: «أجل، بعد خروج العم سنطرح الموضوع ثانية» كادت أن تنس عرض زواجه الذي قدمه بعد وفاة الأم زهراء، أغلب الظن أنه قام بذلك بسبب ما تمليه عليه النخوة ولم يشأ أن يتركها وحيدة.

قال والبهجة على محياه: «سنتزوج ونذهب إلى أفغانيا، قريبا سيخرج الأمريكان من هناك ويعود الحكم لنا» حافظت على ابتسامتها، فهي لم تشأ الرفض لكيلا تخسره، فقد كان حسين الأخ الأكبر ورفيق علي المقرب حينما كانا بمخيم أشبال الخلافة لكنه الآن يراها بطريقة مختلفة، تلمح ذلك بعينيه وتجس منه توترا في كثير من الأحيان، لم يعد بينهما ذلك المزاح الصبياني، لقد صنع حاجزا منذ عرف أنها فتاة، سبب آخر لتكره هذه الصفة فيها.

كان المساء قد حل وأطل بظلاله على نوافذ المنزل نصف المبني. دخلت الصبية وأغلقت الباب بإحكام وتحققت من النوافذ ومن دون أن يفارقها المسدس وجرابه المعلق على خصرها، فاللصوص ينتظرون سهوة من أصحاب البيوت لينقضوا وينهبوا على ما وقعت أيديهم عليه. انهمكت في

تفكيك وتنظيف بندقيتها، فغدا ستذهب للاتفاق مع خبير المتفجرات لتجهيز ما يلزم، وأطلقت تنهيدة طويلة فلو أن في حوزتها الحجر الماسي لما كلفتها هذه العملية شيئا، ونظرت صوب حجرة موصدة ثم رمت ما بيدها.

كانت حاجيات العم منظمة في الحجرة، كل شيء كما تركه، فكلما فتشت بينها أعادت كل غرض إلى مكانه. وبدأت البحث من جديد، لعلها تجد أثرا للمزود. لكن العم أخفى مصدره جيدا فلم يعد يؤتمنها على حجر المادة الشبح فقد خسرت ثقته وخيبت أمله. على صدرها يجثم حجر الحزن والوحدة. أطلقت نفسا عميقا، وأخدت تفتش كل ركن بالغرفة من جديد. أزالت لوح الصوان الداخلي على أمل العثور على مخبئ سري، وضربت الأرضية بقدمها لكن دون جدوى.

غادرت الحجرة نحو البهو وعاد البيت الخالي يرن بلحن الفراغ القاسي. تعلمت الصبية ألا تتعلق بأي مسكن تحل به، من الدير إلى المخيم إلى منازل تفرقت بين بلدة أو قرية جديدة إلا بيت تل هوى...

كان منزلا جميلا، ببوابته المزخرفة ونقوش خشبه المعشق، كانت لها غرفة تطل على حديقة مخضرة طوال العام. حينها كان العم يقضي وقتا أطول معهما حتى أن الأم زهراء تصرفت في تلك الأوقات كالبشر، عكس آخر أيامها عندما تضاعف

هوسها وجنونها، فلازال التمثال مكسور الأنف قابعا على الحصير القصبي ينظر إلى الصبية موبخا، يحن إلى صاحبته وقد التفت حوله الشموع الثمانية ودهنها الذائب تصلب بين حواشها. عليّ إزالة هذه الأشياء، بيد أنها تؤجل هذا العمل في كل مرة.

بعد وفاة الأم زهراء، لم تعد تستطع الصبية رؤية ما كانت تراه ولا تسمع ما كانت تسمعه وهذا ما حلمت به، إذن لم تشتاق إلى ذلك، لما؟ لا هذا أفضل بكثير، وهزت رأسها ثانية، وتجاهلت عيون التمثال الحزينة. هي لم تعد تلك الطفلة اليتيمة الضعيفة، ونظرت إلى نفسها إلى المرآة المعلقة، إذن من هذه التي تراها، صاحبة النظرات المحبطة؟ يا ترى من هذه الفتاة البائسة؟

أشارت الساعة إلى منتصف الليل، فرقدت على الأريكة التي في قاع الدار وعانقت بندقيتها، رفيقتها الوحيدة، محاولة أن تنال قسطا من النوم.

كفر توما، غرب شمال حلبا 15 أيار X021

تبلورت الشمس بأشعتها الدافئة، تنعكس على جباه المارة القلائل وتتسلل عبر زجاج السيارات المسرعة. بأعلى

السلالم التي تحاذي الرصيف وتطل على الشارع العام، بنيت بين عمارتين سكنتين كانت تؤدي إلى مقهى أغلق منذ زمن، وقفت الصبية تراقب في تأهب والريح تلاعب ثنايا عباءتها السوداء. خلف ظهرها وعلى الجانب الأيمن احدودب الثوب على شكل البندقية المجهزة للتصويب. كانت تعد الدقائق في صبر وتعد العربات التي تتباطأ عند الدائرة الطرقية لتنعطف يمينا ناحية سوق شعبي يبعد مئتي متر عن موقعها ثم ظهرت في الأفق سيارة جيب كركية اللون وخلفها سيارة نقل كبيرة بيضاء تحرسها من الخلف سيارتي تويوتا. ضغطت على ملقط صوت في أذنها وهمست: «رفاق، عملية تحرير الغراب ستنطلق بعد قليل» فرد كل من حسين وأبي سلمان بالإيجاب.

في وسط الطريق تحت جارور الصرف الصحي، يطن هاتف بضوء أحمر في انتظار إشارة من الهاتف قديم الطراز الذي في حوزتها. كانت يداها ترتعشان، هل هي الحماسة أم الخوف؟ اشتد نبض قلبها فأخذت نفسا عميقا، وتجهزت للضغط على الزر وعينها على السيارة الكركية، وفجأة دوى انفجار مدوي قبل أن يلامس إصبعها الزر...

تصاعدت أعمدة دخان سوداء تتلوى كالأفاعي نحو السماء من ناحية السوق، ثم لمحت عربة النقل تتوقف بعيدا عن الدائرة الطرقية والسيارات التي معها تستدير إلى الطريق المعاكس

حيث توقفت حركة السير وسط الطريق على وقع دوي الانفجار. شدت على الهاتف في عصبية، فسيارة النقل ستفلت منها، لم تدري أي حظ سيء ليحدث انفجار آخر بالقرب من موقع العملية. ضغطت على ملقط الصوت قائلة: «أبو سلمان، لقد وقع خطأ ما، فلتهاجم الآن» لكن أحدا لم يرد وأخذت عربة النقل تبتعد في الأفق شيئا فشيئا فقفزت من على حاجز السلالم ومضت مسرعة صوبها، فصاحت من جديد: «أبا سلمان أجبني، تبا!» فرد حسين بدلا منه: «أبا سلمان ليس هنا، لقد أخذوه» وسمعت من حوله صوت تبادل النيران، فقالت: «ما الذي يحصل؟»

فأجاب بصوت متقطع: «اسمعيني جيدا، لا تبقي هناك، إنه... إنه أبو حمزة الأسدي»

رمت ملقط الصوت وحطمته بحذائها وهي تعض على أسنانها في غضب: «ذلك اللعين». هبت سيارات العسكر تلوح في الأجواء، فاضطرت الصبية للهرب، التفت حول الأزقة الضيقة إلا أن المكان أخذ يعج بالحركة ورجال الأمن، فنزعت البندقية الظاهرة على كتفها ولوتها في العباءة. استدارت يمينا وشمالا فعثرت على فجوة بين مكبي القمامة فخبأت سلاحها في تردد، واختلطت بالحشود كيلا يلاحظها أحد وقد أصبحت حركة

الناس سريعة في اتجاه واحد بعيونهم الجزعة، مر أحدهم بجانبها يصيح: «داشع فجرته»

****

أطلق سلام صوت المذياع عاليا، يصدح بأغنية مصراوية ذات إيقاع سريع وتعالت ضربات الطبلة وسط صخب السوق، فقد كان يقع بمنطقة تابعة للمعارضة المعتدلة والموسيقى، أو كما يسميها الجهاديون المعازف، مسموحة. انتشرت عربات بيع الخضر والفواكه، وافترش بعضهم لسلعهم حصيرة بالية ومن بينها يحاول الزبائن والدراجات النارية خرق مسار لهم.

أشعل سلام سيجارته ورأسه يرقص على أنغام الأغنية بينما كان أبو جابر يعد ببطء كل قطعة في الصندوق، يتحقق من الحمولة التي أوصلها إليه. فتوقفت سيارة على ما تبقى من هامش الرصيف المليء بالنفايات كبقايا الخضروات وعلب كرتونية وأطلق صاحبها الزمور ليثير انتباه سلام، فأقفل المذياع وهب نحوه.

ألقى مياس التحية بحرارة بوجه بشوش تزينه لحية خفيفة مشذبة، كان الرجل ممتلئ الجسم يعمل مدير مكتب لمنظمة

خيرية، وعرض عليه عملا لصالح المنظمة فرد سلام: «من أجل مصاري نظيفة وحلال، لا أقول لا أبدا. لكن ما الذي أتى بكم إلى هنا؟»

– «كنا ذاهبين لجرد وترتيب معونات في المخزن وبعدها نتجه إلى المكتب»

– «الله حيي أصلك أخي، ليك، أنتم الأبطال الحقيقيين، أفي حاجة لمساعدة بالمخزن؟»

– «ما في داعي، معي الشباب راح يساعدوني» وأشار إلى الشابين اللذين إلى جانبه؛ سامي، الأشقر الطويل والذي يمسك بحاسوب محمول ويضع سماعات في أذنيه. أما الثاني، فقد كان تيم صاحب الشعر الطويل المجعد كأجمة أحراش، فألقى التحية بابتسامة ساذجة لمعرفته السابقة به، وعاد يلاعب هاتفه المسطح بأصابعه وتبين له أنهما من أبناء الألفية الجديدة المهووسين بالتكنولوجيا، فقال سلام متهكما: «إذا كان هيك، الله يكون في عونك» وأضاف: «فلنجتمع غدا على كأس شاي»

تحسر مياس قائلا: «لو كان بيدي، بيد أن عندي شغل لفوق راسي، فأنا مسؤول على مشروع افتتاح متجر هنا»

فاستغرب سلام قائلا: «منظمة خيرية تفتتح متجرا؟»

ضحك مياس وأجاب: «بيت البركة لن يكون متجرا عاديا، إنه السلع مقابل الكوبونات. كيف أشرحها... يسلم لكل أسرة محتاجة كوبونات بعدد من النقاط على حسب احتياجاتهم كل شهر، فكل ما زادت الاحتياجات وقلة الدخل ازداد عدد النقاط. أما السلع فهي مسعرة بالنقاط وهكذا تتاح للمستفيد اختيار ما يحتاجه وهذا أفضل من تسليمه سلة معونات قد لا يستفيد من نصفها أو مساعدات تأتي بشكل مفروض»

– «والله فكرة حلوة هاي، وكيف ستحسبون هذه النقاط؟»

– «نقوم بعملية إحصاء وهاذين الشابين، ما شاء الله عليهما، قاما بتطوير برنامج يساعدنا ومكلفين بموقع المنظمة أيضا»

فتدخل تيم بحماس: «أنا اشتغلت على المحتوى وسامي تولى عملية التطوير» واسترسل في ثرثرته فهز سلام رأسه مدعيا الفهم، ومن دون سابق إنذار، ارتفع دوي انفجار هز أركان السوق.

أخفض الجميع رأسه واختبئوا خلف أي شيء يجدونه يصرخون وعلت التكبيرات في الجو، فأحدهم فجر سيارة مفخخة وسط السوق الشعبي...

بعد مدة وجيزة، انتشر العسكر في كل ناحية وصفارات الإنقاذ المدني التي تدوي بصخب. طُوقت البقعة المحترقة التي خلّفها

الانفجار وقد أصاب محل خضروات كان قرب السيارة المفخخة. وقف أبو جابر ممسكا برأسه من هول ما يرى وتحولق وبسمل أما سلام أشعل سيجارة يمتص بها حرقته على هذا البلد الضائع، فمر تيم من أمامه رافعا هاتفه لتصوير المشهد ليضعه على صفحته الفيسبوكية، فدنا من هيكل السيارة الذي لا يزال مشتعلا لكن ما إن رأى جريحا احترقت رجله من الفخذ إلى الساق وقد تآكل ما فيها من لحم حتى تأوه واصفر وجهه فصاح به سلام لاعنا: «تعال إلى هنا أيها الغر»

اجتمع المتفرجون عديمي الفائدة حول محيط الانفجار وهب المسعفون إلى نقل الجرحى، ساعدهم بعض الشباب من بينهم مياس.

سأل أبو جابر: «كم وصل عدد الضحايا؟»

أجاب الشاب الأشقر وقد وضع يده في جيبه مكتفيا بالمراقبة: «ضحيتان، امرأة وطفلها»

فرقعت شعلة فابتعد المتجمهرون نحو الخلف وأيضا المتطوعون حتى لا يخاطروا بحياتهم، لكن شابا آخر اندفع يحاول أن يصور عن قرب ليبثه على ما يسمونه اللايف ودفع سلام جانبا فزاد من حنقه واصطدم أحد آخر به من الخلف

فأطلق سبة إلا أنه لجم لسانه، فقد وقفت إلى جانبه صبية، تهيأ له أن رآها في مكان ما قبل الآن، ارتدت ملابس رجالية واسعة بشعر أسود متموج يلوح في الهواء إلا أن خضرة عينيها ذكرته بمن هي، كانت المسافرة التي دفعت أجرة الركوب من دون أن تستقل الميكروباص.

علق أبو جابر وهو ينظر للمحل المحترق: «هل هؤلاء الناس لا يتعبون أبدا، تفجير كل يوم؟» وضم مياس ذراعيه مطلقة تنهيدة مملوءة بالحسرة أما سلام فأخذ نفسا طويلا من السيجارة، فجيلهما من أشعل الثورة ولم يعرف كيف يخمد الحرب التي ورطه العالم فيها.

اقترب رجل قصير القامة وقد وقف بينهم ليشاهد عن قرب ما يحصل ثم قال: «هؤلاء الدواشع أولاد الكلاب يحرقون الأخضر واليابس»

فسأل تيم سامي الذي بجانبه وقد كان صوته مسموعا: «أمتأكدون من أن داشع من نفذت العملية؟» كان سؤالا لا طعم له ولا معنى،

أجابه أبو جابر: «انظر يا بني، أيا كان، الله يلعن الذي كان السبب، داشع والضبع والأمريكان والروش وكلهم سواء» وأكمل بنبرة أشبه بالصراخ: «ضجرنا رائحة الدخان والدم في أنوفنا!»

قال سلام مواسيا: «الله كبير يا أبا جابر، سيفرجها عما قريب»

تدخل الرجل القصير الذي صرخ متحمسا وكأنه يشاهد مباراة كرة قدم: «أراهن بكل ما لدي أن جماعة الأنصار من داشع وراء هذا، لابد أنهم يريدون الرد بعدما تم القبض على قائدهم المدعو أبي يزيد ومرافقيه»

أشعل سلام سيجارة ثانية نافثا دخانها نحو السحب الكثيفة السوداء التي تلف الخردة المشتعلة ووضعها بين شفتيه وهو يتكلم: «إيييه أكيد، سأراهن بمليون ليرة على أنهم أصحاب أبي يزيد، فهذا الرجل أشرس من بن لادن وأبي بكر البغدادي مجتمعين. لو أعدموه فور قبضهم عليه لأراحوا العالم من أمثاله، فهذا النوع من البشر يستحقون أن يعدموا ولا تأخذك بهم رحمة»

– «وماذا تعرفونه أنتم عن أبي يزيد؟»

فحل الصمت بين الرجال السبعة والتفوا نحو الصبية ذي العيون الخضر وأكملت والغضب يعتمل في صوتها: «كل ما أسمعه هم فعلوا، أولئك قَتلوا أو قُتلوا، لماذا لم يوقفهم أحد؟ لما ظل الضبع يحكمكم طيلة أربعين عاما، لماذا خرس الناس طوال هذا الوقت؟ وحين نهضوا تشتتوا كالجرذان، يعيشون في الذل والمهانة وأصبحوا حديث العالم ضعفاء خاملين» ثم

نظرت إليهم: «أنتم أيها الكبار من جعلنا ما نحن عليه الآن، صمتكم وخمولكم والاكتفاء بالقليل دائما، ربما الدواشع مريعون لكن على الأقل جعلوا العالم يتزعزع تحت أقدام...» فبترت جملتها حين لاحظت عيون من حولها وهم يحدقون فيها بذهول.

أطلق سلام نخيرا ساخرا ثم رد وهو يلاعب السيجارة بين يديه: «وماذا كان يفعل أبو يزيد؟ هل كان ينقذ الناس ببندقيته وتكبيره؟» خرست الفتاة وقد وجدت نفسها قد تفوهت بالكثير وتصاعدت الهمهمات والاتهامات الصامتة نحوها، فلن يقف في الصف الدواشع إلا واحد منهم، المسكينة متوهمة.

فجأة صرخ الرجل القصير بنبرة صوته العالية وهتف: «انظروا لا يزال أناس عالقين بالمحل» وتعلقت العيون صوب المبنى المحترق.

اقترب سلام من الصبية وقد طغت رائحة سجائره على رائحة الرماد الكريهة قائلا: «أرأيت ماذا يصنع أمثال أبي يزيد يا فتاة؟ إن أمثاله لا يميزون بين الصغير والكبير، بين النساء والرجال، فبالنسبة له الجميع كفار وهو من أهل الجنة» ونفث الدخان في وجهها متعمدا

ردت وقد سمع صوت اصطكاك أسنانها: «العم أبو يزيد لن يفعل شيئا كهذا، إنه لا يقتل الأطفال والنساء»

أطلق ضحكة مجلجلة من سخافة كلامها وأجابها بسخرية: «وماذا يفعل؟ آه نعم يعاشر النساء والأطفال على السواء»

لم يستوعب ما جرى ففي غمضة عين باغتته بلكمة ارتمى بفعل قوتها إلى حضن أبي جابر.

أمسك سلام بأنفه المهشم متأوها من شدة الألم والدم ينزف بكثافة وسارع إلى لملمة رجولته التي تدلقت على الأرض وكاد أن يهاجمها فأمسك به مياس وأبو جابر فصاح في وجهها: «يا بنت القحبة... لو لم تكوني امرأة للقنتك درسا»

ردت صائحة: «فلتحاول يا ابن الكلب» فانفلت من قبضة الرجلين ليشدها من طرف عنقها لكنها حدجته بنظرة متحدية إياه، لم ير يوما مثل هاتين العينين، كانت كعيني وحش مفترس سينقض عليه في أية لحظة. شده مياس إلى الخلف وقال: «استهدي بالله أخي سلام، وأنت يا بنت الناس حِلِّي عنا»

****

15 أيار X021

صمت يهيم بالمكان حتى علا صوت محرك سيارة تدريجيا في الجو. مسحت الصبية يدها اليمنى المغطاة بالكدمات من أثر اللكمة في ملابسها. لم تكن تفكر بوضوح

لحظة تورطها في الشجار فقد أشعل الرجل ذو الشوارب غضبها وقد كانت الحرقة تتآكلها لعدم استطاعتها الاستمرار في العملية، فالأسدي كان له موقف مختلف.

تفحصت الطيات عند الصدر وتهلهل الثوب فوق كتفيها، وجمعت خصلات شعرها المبعثرة تحت القبعة بعناية، اشترتها ببضعة ليرات قبل أن تخرج من المدينة. تلمست المسدس المخبأ عند خصرها وعطلت قفل الأمان، فهي لم تكن تأمن لأي أحد من أتباع الأمير. كان يختبئ مع عناصره من الأمنيين في جحور كالأرانب بعدما استهدفت قوات التحالف مراكز عملياته واحد تلو الآخر.

أشار المقاتل إليها بأن تستقل السيارة وأن تضع قناعا أسودا على رأسها لكيلا تتعرف على الطريق المؤدية إلى مخبأ الأمير. توقفوا في أرض حجرية مهجورة حيث وجدت حسينا ينتظر إلى جانب حارس ملثم واقتادهم نحو كهف حفر حديثا. مضى بهم في مسارات ضيقة أودت بهم إلى فسحة معتمة.

تدلى من السقف مصباح لا يكاد يضيء نصف مساحة المكان، جلس أبو حمزة الأسدي أمام طاولة يلاعب بيده اليمنى خنجرا قديما بقبضة سوداء مرصعة بقطع زجاجية. لاح بيده لأحد حراسه فأتى بأبي سلمان مكبلا يجره ورماه نحوهما. ساعده حسين على النهوض لكن الرجل الضخم بوجهه الدامي

أبى ونهض متكئا على قدمه المصابة وابتسم لهما كاشفا عن فقدان أسنانه الأمامية وقد تورمت عينه. قال لسيده في خنوع: «نحن تحت أمرك أيها الأمير»

تمازجت الظلال مع ضوء المصباح البخيل على ملامح الأمير، كان رجلا ذو أنف طويل بأرنبة عالية ولحية وشارب كثين، تفيض الثقة من عينيه الحادتين وبلحظة يحسب الناظر أن كل واحدة منهما تنظر في اتجاه لكن بصره يشيح عنهما فجأة إلى الوشوم الزرقاء المختبئة تحت أكمام عباءته الأفغانية.

قال بنبرة خفيضة وبعربية فصحى لا تشوبها شائبة: «إنه واجبك بأن تحرص على انضباط تابعيك يا أبا سلمان، فقد كنت الساعد الأيمن لأبي يزيد مما يجعلك خليفته في قيادة فصيل الأنصار»

– «بالتأكيد سيدي، أتفهم أن في عملية كهذه يجب أن تتم الموافقة من القيادة العليا وقد تصرفنا بطيش لكنه أثر خيبات الأمل المتتابعة على نفوس الرجال وإن النفس لأمارة بالسوء. فكيف يجتمع الكفار بينهم ويلتحمون في حين نحن نتشتت كالفئران الشاردة؟»

– «تحالفهم هذا يعني أنهم يهابوننا وكل أنظار العالم مصوبة نحونا» كانت كلماته لا تتوافق مع ما يعايشه المقاتلون وأكمل رافعا سبابته نحو الأعلى: «الدولة الإسلامية لن تسقط حتى يلج الجمل من سم الخياط. لن تسقط أبدا والله سيعلي اسمه ولو كره الكافرون»

رد حسين بحماس: «ونحن معك أيها الأمير لذا نرجو أن تمدنا بالقوة اللازمة لتحرير القائد والرفاق، بعد إذنك»

– «إنه أمر مؤسف أن يقع مجاهد عظيم كأبي يزيد في الأسر، وإن كنت قد تمنيت له الشهادة في ساحة المعركة أفضل له بكثير من ذل الأسر»

فتدخلت الصبية: «ما نفعه إن كان ميتا؟ لولا تدخلك لتمكنا من تحرير القائد ومن معه»

– «لقد كبرت أيها...» وتفحصها بعينيه غير المتماثلتين: «أيها الفتى، أرى أن أبا يزيد علمك الكثير لكنه نسي أن يعلمك الانضباط. كانت الأولوية لزعزعة عملاء العلمانية الكفرة الذين يلقبون أنفسهم بجيش التحرير. وبما أن أبا يزيد أصبح في عهدتهم فهذا سبب آخر للقتال»

دور الخنجر على الطاولة مفكرا ثم قال وهو ينقب بأبصاره زوايا الدهليز المظلم: «لديكم كلمتي، سيخرج أبو يزيد ومن

معه، فإن لم يكن فستكون أعظم سخرية في التاريخ إن قتل على يد أحبابه» لم تفهم ما قصده بكلامه وقد تجلت نصف ابتسامة على شفتيه المتصلبتين.

قام من مقعده قائلا: «عملية التفجير في السوق الشعبي ما هي إلا البداية، يجب أن نوقف زحف جيش التحرير قبل أن يقوى عوده ويصل إلى مشارف إيد ليبو، وهذا واجبكم يا فصيل الأنصار» ونظر لأبي سلمان: «ستقود الفصيل للاستيلاء على معبر حلبا الغربي في حين سيتولى فصيل الإيغور الهجوم على الحاجز العسكري التابع لجيش التحرير» ثم ربت على كتفه: «بالتأكيد بعد أن تستعيد قوتك» فأحنى أبو سلمان رأسه وقد حافظ على ثباته رغم أن الجرح في ساقه أخذ ينزف من جديد.

– «فلتسانده يا حسين» وحرك الأمير أوراقا على سطح اللولب الكبير الفارغ الذي لعب دور طاولة: «قبل هذا علينا التخلص من صورته الإعلانية المنافقة، لهذا يا فتى فسأوكل إليك مهمة يسيرة بإذن الله» وحدق في الصبية: «أريد أن أعرف كل خطوات عملاء الغرب أولئك، من كبيرهم إلى صغيرهم، ماذا يخططون ومن يرعاهم وعلى رأسهم هذه» وثبت صورة امرأة بالخنجر فوق الطاولة.

فأجابته: «هذه ليس مهمة مقاتل» بالأحرى إنه عمل مخبر، مهمة حقيرة لا ترقى لمستواها.

– «بل العكس، التسلل في صفوف العدو أمر في غاية الأهمية. وعندما نزلزل صفوفهم، سيصبح تحرير أبي يزيد وإخوتنا أمرا واقعا»

وأكمل الأمير المزهو بنفسه: «ستكون رسالة مفادها أن أي عميل للغرب، أو ما يدعون أنفسهم بنشطاء وثوار، يخطو داخل حدودنا سينال ما يستحق» وأعطى الإشارة لمعاونه بأن يقودهم إلى الخارج.

****

(2)

كفر توما، غرب شمال حلبا أيار X021

تناثرت الخيم على أطراف أرض زراعية لأسر نازحة من الجنوب، بعضهم لم يجد سوى أشجار الزيتون ليتخذها بيتا تزاحمهم حاجياتهم أو ما استطاعوا الهرب به من القصف والحصار. من بعيد، يجري الأطفال بين المساحات الفارغة يملؤون وقتهم باللعب بما وفر لهم خيالهم، وامتد حبل علقت عليه بعض الملابس تعلم القادم بأن المكان مدينة مصغرة بأقل ما توفر من الضروريات، فحتى الماء تمثل في خزان أبيض ضخم فارغ، ثبت فوق أعمدة حديدية وسط المخيم كتمثال بوذا، يلقي عليه المارة نظرة استغاثة ورجاء. أقامته الحكومة المؤقتة ولكن نادرا ما يتم ملؤه فيضطر الناس إلى السير كيلومترات بحثا عن الماء الصالح للشرب. هنالك الحرب لكن قبلها كانت المنطقة تعاني شحا من المياه وجفافا طوال سنوات فتفاقم الوضع سوء مرات مضاعفة.

تتبعت زهراء بعينيها من خلف قماش الشال الأسود هدفها، الذي كان امرأة تتحدث مع بعض النازحين وقد التفوا حولها

كأنها الملاك الذي سيخلصهم. تدلت من أذنها حلقة واحدة طويلة، معدنها فضي اللون وتزينت ببلورة زرقاء مخططة. ظهر شكل جمجمتها بتسريحة شعر رجالية فلم يبقى سوى بعض الشعر على غرتها الجانبية وتعر جبينها الطويل تماما. تبدو غريبة عمن حولها بمظهرها ذاك. كانت امرأة نحيلة وعلى وجهها الضارب إلى الصفرة تجاعيد خفيفة تدل على أنها تجاوزت الأربعين من العمر.

عثرت الصبية على مقالات عنها تملأ صفحات الانترنت ومقاطع فيديو وهي تردد شعارات الحرية بين المتظاهرين في السنوات الأولى من الثورة. تدعى فدوى الرفاعي، ناشطة في العمل الإنساني، استمدت شعبيتها من صفتها أيقونة الثورة فهي المرأة النُّصيرية التي تحدت عائلتها وطائفتها لتقف بصف أولاد السنة وقادت عديدا من المظاهرات ضد النظام بمدينة ناريا الجنوبية. وفي أواخر العام الثاني من الثورة فرت إلى فرنشا، قيل من أجل العلاج وقيل أيضا أنها ككثير من مثقفي البلاد الهاربين، وآخرون يرددون أنها مجرد واحدة من المعارضة التي تباع وتشترى في المحافل الخليجية.

كان إلى جانب الناشطة شاب يعمل تحت إمرتها وعلى بعد أمتار قليلة ينتشر عناصر من جيش التحرير، فعلى وقع عملية البارحة ارتفع عدد نقاط التفتيش لتشمل كل زاوية من المدينة

وتضاعفت درجة تأهب مقاتليه. تظاهرت الصبية على أنها زهراء، واحدة من النازحات ودنت من الهدف بحذر كما تطلبت المهمة.

احتجت امرأة منهن موجهة الحديث إلى فدوى: «الناس هنا لا يكفيهم بضع مساعدات، بل نحن في حاجة ماسة إلى سقف يأوينا وأن نعود لموطننا... أعيدونا إلى بيوتنا وسنعيد بناءها، سنزرع الأرض ونطعم أنفسنا بأنفسنا بل وسنطعم الآخرين أيضا»

واستها فدوى ببضع كلمات، وهدأت بصوتها الرخيم من لوعة الأم، فقد شكت بأن لها ثلاث بنات يعشن في خيمة من دون معيل. كانت الناشطة تنصت لشكوى كل واحد من النازحين الذين قدموا إليها. كانت نظرتها شديدة الوداعة، شديدة التعمق، ترخي من دفاع محدِّثها فيطلق العنان لقلبه كالرجل الذي قال في يأس: «ندعو الله أن ينهي هذه المعارك وتعود الشوارع لسابق عهدها. هذا رجاؤنا، كل ما يريده الواحد منا أن يقدر على شراء رغيف خبز ومن دون قذائف تحوم على رأسه» والتمعت في عينه دمعة رفض أن يطلق سراحها.

طوال فترة مراقبة زهراء لها، لم تكن فدوى تبقى لوحدها أبدا إضافة إلى المقاتلين المسلحين الذي يسرحون كما يشاؤون على الطرقات وفي الشوارع، بأزيائهم الرخامية التي خط عليها

"جيش التحرير السورمادي". تمركزت سياراتهم العسكرية عند مداخل المخيم، وبالرغم من ذلك لم يأبه لهم أحد، فرؤيتهم صارت من الأمور الاعتيادية فبعض الناس يجدونهم أمام عتبة منازلهم أو خيمهم وأحيانا في غرفة معيشتهم.

تحاشت الصبية المرور بمحاذاتهم وتراجعت إلى الوراء، كانت تمشي كما كانت تفعل الأم زهراء، بوقفة مستقيمة لكن لا ترفع رأسها عن الأرض وتحاول التحدث مثلها. كانت الخطة تستلزم تتبع الهدف أولا والكشف عما يخطط له كما نصّت أوامر الأمير، كانت تقوم بذلك مرغمة. لكن إن كان رأس هذه المرأة سينقذ العم أبا يزيد فلا تبالي بما سيحصل لها. قتلها سيكون أسهل بكثير، وتنهدت ثم رمت في فمها حبات من الشوكولا، كانت ذائبة فاتسخت أصابعها. مسحتها على جانبي عباءتها ثم تذكرت أن الأم زهراء لن تتصرف هكذا.

كان الوقت ضحى حين تحركت سيارة الناشطة مغادرة المخيم وجعل اسم المنظمة "جمعية الياسمين للأعمال التطوعية" المطبوع بالأزرق والأصفر على هيكلها الأبيض مهمة تتبعها سهلة. توقفت عند بناية بثلاث طوابق تبعد عن مخيم 'الكرامة' خمسمئة متر لا غير، تجاورها منازل مكتراه للنازحين الذين باستطاعتهم توفير أجرة الكراء.

علقت لافتة كبيرة قرب المدخل تعلن عن افتتاح متجر، وزُخرف اسم "بيت البركة" بحروف قوطية تحتها شعار المنظمة. منع البواب الصبية من الدخول وقد بين لها أن المتجر سيفتتح للمستفيدين في الأسبوع القادم ظنا منه أنها نازحة متسولة. فعادت تراقب من الخارج عاقدة ذراعيها لساعتين، وعندما ضاق بها الوضع قررت الدخول على طريقتها.

حامت حول البناية فوجدت خلفها بقعة خالية من المارة. ارتفعت على بعد مترين نافذة مستطيلة ذات باب عمودي نصف مفتوح لكنه كان كافيا بالنسبة لها. انتظرت حتى عبرت امرأتان محجبتان إلى الجانب الآخر من الشارع وخلا بها المكان. رجعت ثلاث خطوات إلى الوراء ثم قفزت بخفة، اعتمدت على قبضتيها ورفعت جسمها بقوتها الذاتية، سحبت نفسها إلى أن صار جزؤها العلوي بالداخل.

لمس أنفها هواء بارد ورائحة نتنة، وبعدما تأكدت ألا أحد حولها، اندفعت لتقفز إلى الأسفل لكن الباب العمودي انقبض فجأة وهوى على أسفل ظهرها. خرجت صرخة مكتومة من الألم ثم حاولت الزحف إلى الداخل لكن بدون فائدة فحاولت العودة إلى الخارج لكن النتيجة كانت انقباض مفصلات الباب أكثر.

أخذت تحرك قدميها العالقتين خارجا كزعانف سمكة خارج الماء. «هل كل شيء على ما يرام يا آنسة؟ أتبحثين عن شيء ما؟» تجمد الدم في عروقها، لمحت رجلا يرتدي سترة بنفسجية يقف بالقرب من رجليها، حاولت التصرف بطبيعية قدر الإمكان وأجابت والتوتر طغى بنبرة صوتها: «سقط شيء لي هنا في الداخل وحين حاولت استعادته علقت، يا للسخرية»

– «شيء يخصك هناك في الداخل... في حمامات الرجال؟» عندها فقط أدركت مصدر الرائحة الكريهة ولعنت حظها.

غاب الشاب لوهلة ثم عاد ومعه كرسي بلاستيكي استعان به ليصل إلى الباب المنزلق. ضربه بقوة حتى انخلع وقال: «يمكنك النزول الآن»

سُمع صوت ارتطام معدن مسدسها حين زحفت على الحافة، فتوقفت للحظة خوفا أن يكون فطن لشيء ما بيد أنه مد يده لمساعدتها وأمسك ذراعها عند النزول. رتبت عباءتها وغطت نصف وجهها بغطاء الرأس مدعية الخجل في محاولة إخفاء ملامحها وتمتمت له بكلمات الشكر اللطيفة.

ابتسم لها الرجل الذي كان شابا في مقتبل العمر، تميل قسمات وجهه إلى الجمال أكثر من الوسامة، عينان فضيتان بأهداب طويلة، تطل إحداهما على شامة رسمت على بشرة شاحبة كالحليب، شعر أشقر وشفتين ورديتين، حليق الوجه، فارع

القامة لكنه متناسب مع عرضه، فلا هو شديد النحول ولا فائض العضلات، تفحصته زهراء جيدا بعينيها وقد انتابتها الريبة، فهذا الشاب كان مخبر أبي سلمان الذي رصدته عبر عدسة المنظار قبل ثلاثة أيام فملامحه المميزة تجعل من الصعب الخلط بينه وبين أحد آخر.

سألها ومن نبرة كلامه بدا رقيقا وشديد التهذيب عكس الوقاحة التي أبداها ذلك اليوم: «هل يمكنني تقديم مساعدة للآنسة؟» هزت رأسها نافية فقال: «اعذريني فلست أصادف كثيرين من الناس معلقين على النوافذ»

أرغمت نفسها على إطلاق ضحكة مخنثة وهرشت مقدمة رأسها مفكرة في عذر مناسب، فلاحظت أن سترته البنفسجية تدل على أنه متطوع فردت: «بصراحة... جئت من أجل التطوع فأنا أحب... مساعدة الناس وما إلى ذلك، لكن البواب لم يسمح لي بالدخول»

فلاحت ابتسامة أنيقة على شفتيه وقال: «أتبعيني إلى الداخل، أعرف شخصا سيساعدك»

كان المتجر عبارة عن صالة واسعة تحتوي على مختلف أنواع السلع كل في جزئه الخاص، المواد الغذائية، الألبسة والأقمشة ولوازم المطبخ والتنظيف وغيرها. قدمها الشاب الأشقر إلى

امرأة محجبة تحصي القطع على الرفوف وتدون ملاحظات بدفترها.

ارتدت المرأة شالا بلون الأزرق اللازوردي يظهر قليلا من شعرها المصبوغ لكن مشدود بإحكام وقميصا أزرقا فضفاضا مع سروال جينز. أثار طلاء أظافرها الأحمر اللامع انتباه زهراء، كانت أصابعها الرقيقة تبدو في غاية الجمال. وضعت قليلا من مساحيق التجميل على وجهها ذي البشرة السمراء وقد فاحت من ملابسها رائحة عطر منعشة.

طلبت منها الجلوس أمامها وعرفت عن اسمها بنور الآغا، سألتها عن معلوماتها الشخصية وقالت: «ألديك خبرة في هذا الميدان؟»

ردت مرتجلة: «لا أعرف الكثير عن هذا المجال، أتيت لأني أعتبر فدوى الرفاعي قدوتي وأنا معجبة بأعمالها» وثرثرت بما قرأته عنها على صفحات الانترنت.

لاحت أسنان المرأة البيضاء في ابتسامة وقد وافقتها الرأي وشمرت على ذراعيها لتبدأ حديثها عن المنظمة وتاريخ نشأتها، كانت تستمع لحديثها وعينها على الشاب الأشقر الذي جلس بالقرب منهما وهو يعمل على حاسوبه. كانت واثقة من أنه مخبر أبي سلمان، وهذا أثار الشك في داخلها، فهذه المنظمة

ذات خلفية مريبة بالتأكيد وأيضا الناشطة، لهذا الأمير يزعج نفسه بالبحث عن نشاطاتها.

كانت عملية التطوع أكثر تعقيدا مما توقعت زهراء، فقد طلبت منها الموظفة ملء استمارة لاحقا وإرفاقها بالصورة الشخصية وسيكون على المتقدم تقديم ثمن الرسوم الذي هو خمس دولارات إضافة إلى توقيع التزام.

فلاحظت الموظفة امتعاضها فقالت: «ليس ضروريا أن تدفعي رسوم الالتحاق، ويمكنك تجربة العمل معنا ليومين، إن أعجبك عندها عليك توقيع الالتزام» ومسحت كفيها ببعضهما وفسرت: «العمل التطوعي يتطلب كثيرا من الجهد والالتزام، يأتينا عشرات الأشخاص راغبين في التطوع لكن ما يلبثون يتفاجؤون بكمية العمل المطلوبة وصعوبته فيستقيلون بعد مدة قصيرة وهناك نوع ثاني لا يأتي إلا بالمناسبات، قلة قليلة من يلتزمون، ولا نلوم أحدا لأن هذا العمل يتطلب تضحية كبيرة»

– «تضحية؟ لا فالعمل التطوعي وظيفة أحلامي، فهكذا سأقابل أستاذة فدوى» واصطنعت الحماسة، كل هذا بسبب أبو حمزة الملعون.

وضعت نور يدها على صدرها متأثرة بجملة الصبية المبتذلة وقالت: «إذا عملت معنا فأعدك أن تقابلي الآنسة فدوى كثيرا»

ولاعبت القلم وقالت: «ليس مهما لكنا في حاجة لأشخاص أصحاب شهادات، أظنك صغيرة في السن، أتدرسين بالثانوية؟» فأجابت زهراء بالنفي، «إذن لديك شهادة إعدادية؟» أجابت بلا. أما هي: «شهادة ابتدائية؟» فقالت مشفقة: «ألم تذهبي يوما إلى المدرسة؟»

خبت الحماسة من وجه الصبية وأجابت: «لقد أخذت تعليمي في البيت»

– «ممتاز وقد أثبتت الدراسات أن التعليم في البيت أفضل» كانت بكلامها تحاول مواساتها على طريقتها: «إذن، هل والداك من أشرفا على تعليمك» لم يكن هناك رد فتمتمت: «آسفة، ما كان قصدي»

كفت عن الأسئلة وقد لاحت على وجهها علامات الشفقة، فقالت زهراء بحزم: «ربما لا أكون متعلمة في المدرسة لكني درست في البيت على أفضل معلم وأيضا قد لا أبدو قوية لكني أستطيع حمل هذا المكتب ووضعه أينما تشائين» ثم نهضت وقالت: «اختبرني قبل أن تحكمي»

كل ما فكرت فيه ساعتها هو كسب الوقت إلى أن تحصل على ما تريد وتجاهلت نظرات الموظفة المستفزة، ابتسمت نور وقالت: «حسن، لما لا تأتين غدا وسأرى ما يمكنني أن أفعله،

وقد تقابلين فدوى شخصيا» وضغطت على يدها مودعة كأنها تشد من أزرها أو تواسيها وهذا أثار حنقها أكثر.

خربة اللوز ريف إيد ليبو الشرقي أيار X021

بعث خرير الماء في البيوت المتناثرة سحرا من البهجة وابتل التراب الطيني من تسربات الساقية على مدى الطريق الحجري الصغير، غذى النسيم برائحة ندية أراحت أعصاب الصبية المشدودة. كان حسينا في انتظارها واقفا قرب الساقية فأشاح بوجهه ظنا منه أنها امرأة غريبة.

أزاحت النقاب عن وجهها حين وصلت إليه فقالت ممازحة: «ألم تعد تتعرف علي الآن؟»

فأجاب متلعثما: «لقد صار صعبا التعرف عليك هذه الأيام، ناسبتك العباءة أكثر... ماذا أقول؟ كلماتي أصبحت خرقاء» نعم وتصرفاتك أيضا، لم يعد الأمر كما كان بعدما أصبح علي صديقه الصغير مجرد فتاة... «إذن ما رأيك بمهمتك الجديدة؟ هل تحتاجين لمساعدة ربما؟»

– «إنه عمل ممل، أرجو ألا يطول الوضع أكثر» ورمت بحجر بأعلى قدمها فقد كان وجود الشاب الأشقر يؤرقها. «بماذا كلفكم الأمير؟»

– «لا تهتمي، إنها عملية اعتيادية لا غير» وهذا عنى أنها عملية سرية، فالأسدي يريد التخلص من جيش التحرير والنشطاء الذين يوفر الحماية لهم، خوفا من خسارة المعبر الأكبر نحو تركيشا وبالتالي خسارة كبيرة في الأرباح التي يكسبها بمساعدة حليفه البغلاني.

– «عليه أن يلتزم بكلمته، فقد ألغى عمليتنا من دون سبب مقنع» تنتابها غصة كلما تذكرت أن أبا يزيد كان قريبا ورغم هذا لم تنقذه. «إني لا أثق بالأمير، حدسي ينبئني أنه من خان العم والرفاق في آخر معركة»

أخفض حسين رأسه وقد امتنع عن البوح بشيء ما واكتفى قائلا: «فلتأخذي حذرك في منطقة المعارضة، فهؤلاء الزنادقة ماكرون»

– «لكني أمكر منهم، فلا يوجد سبب يدفعهم للشك بي» وودعته قائلة: «فلتبلغ سلامي لأبي سلمان وانتبه لنفسك»

شد ذراعها ليوقفها ثم أمسك يده خجلا، وقال بصوت أوطئ: «سأكون قريبا إذا ما احتجتني»

– «أعلم ذلك» ربما هي ليست وحيدة تماما، فحسين لا يزال هنا.

دنا منها أكثر. رن حفيف الأشجار حولهما وبرقشت أوراقها بظلالها وجهه القريب منها أكثر من المعتاد... ابتعد خطوة إلى الوراء محرجا أكثر وغادر.

عندما اكتسحت النجوم السماء الصافية، كانت الصبية داخل البيت تستعد ليوم غد. ستقوم بمهمتها على أكمل وجه، وقد قررت ألا ترتكب الأخطاء نفسها، لذلك كان عليها التخلص من مظهرها المثير للشفقة.

بحثت بين أغراض الأم زهراء القديمة واختارت قميصا أبيضا بأكمام طويلة، ارتدت فوقه سترة خفيفة من دون أكمام مخططة بالأزرق والأبيض، تصل إلى حد الركبة وربطتها بحزام أحمر نحيف. بعثرت أغطية الرأس التي كانت تملكها الأم، جميعها سوداء من الصوف الخشن وواسعة، بعضها يغطي كل الجزء العلوي من الجسد. لم تنتبه الصبية من قبل أنها لا تملك غطاء خاصا بها وفكرت بأن ليست ملزمة بذلك، قد تبدو غريبة فأغلب النساء بالمنطقة يغطين رؤوسهن، حتى غير المسلمات يضطررن لذلك. لكن كلما بدت أكثر سفورا لن يشك أحد بأنها عنصر من فصيل الأنصار.

وبينما هي تعيد تنظيم حاجيات الأم زهراء، انتبهت لوجود صندوق مليء بملابس العم أبي يزيد، كانت كلها ملابس مدنية، سترة جلدية وقمصان رياضية... وعند قعر الصندوق،

عثرت على علبة حمراء خُبأت فيها بعناية سلسلة مفاتيح وهاتف قديم الطراز. حاولت تشغيله لكن بطاريته كانت فارغة، انتابها فضول حول ما يحتويه وخصوصا لاعتقادها الأكيد بأنه ملك للعم، فأخذت تبحث عن شاحن يلائمه بما أنه قديم الطراز، حتى وجدت واحدا في درج مليء بالخردة.

أضاءت الشاشة بمستطيل فارغ، فتركته لبعض الوقت ليشحن، واتكأت على الأرض فمال بصرها ناحية السلالم، تراكم الغبار على الدرجات الضيقة المؤدية إلى السطح. هناك ارتمت الأم زهراء كأنها تسبح في الفضاء نحو الزاوية الحادة واصطدم رأسها بالحافة مصدرا صوتا كضربة سندان بنَّاء هوى على صخرة مجوفة... رغم أن عينيها كانتا دامعتين على الدوام... إلا أن دمعتها تلك هزت كيان الصبية التي تسمرت بأعلى السلالم، لم تمهلها أنفاسها سوى أن تنطق بكلمات غير مفهومة: 'أنت... موتي... سبب' السبب في موتي؟ لكن الصبية لم تقصد.

واستدارت للجهة الأخرى ضامة ركبتيها بذراعيها ودكات الساعة ترنم في أصداء البيت الخالي برتابة إلى أن غلبها النوم على ذلك الحال.

****

كفر توما، غرب شمال حلبا أيار X021

تأرجحت الستائر مع نسمة هواء في شقته ذات الإضاءة الخفيفة، أثاثها يتكون من سرير مرتب، مكتب وكرسي، ومنضدة أكل في نصف مطبخ يتجاور مع الباب. رشف سامي من فنجان القهوة ووضعه على طبقه الخاص لكيلا يترك أثرا على طاولة المكتب. أنصت بتمعن لثرثرة أمه طوال وقت محادثة الفيديو ورد على أسئلتها بالأجوبة التي ستفضل سماعها، إلى جانبها تجلس أخته الصغيرة، تعبث بأزرار لوحة المفاتيح فتحدث خشخشة في الصورة عبر شاشة الحاسوب وأحيانا ينقطع الصوت. عاتبته والدته على قلة اتصالاته وأزعجته بأسئلة تافهة، كهل يتناول وجباته في وقتها، هل يحتاج لنقود لتبعثها إليه، كانت تخاطبه وكأنه طفل في السابعة وقالت ويدها على صدرها: «كلما شاهدت الأخبار يرتعب قلبي، لما لا تأتي للابنون حبيبي، هنا أيضا يمكنك التطوع بالإضافة ستكون قريبا من البيت. لا أستطيع النوم وأنا أعرف أنك في مكان خطر»

– «لا داعي للقلق أمي، إنها يبالغون على الأخبار لا غير والحياة هنا لا بأس بها» وتبسم مضيفا: «كما تطوعي بسورمادا سيكون علامة فارقة في ملف الترشيح للجامعة»

ضمت يديها وأمالت رأسها: «إني حقا فخورة بك، تنخرط في العمل الإنساني وتسعى للدراسة في جامعة مرموقة. لقد كبرت

في غمضة عين حبيبي» ومسدت شعر ابنتها موجهة الحديث لها: «إيما لما لا تعرضي على أخيك الكبير رسمتك» فهبت الطفلة تبحث عن كراستها وعرضت عبر الكاميرا خربشة أطفال؛ رسمت صورة لكيلهما، الأخ والأخت، ممسكين بأيدي بعض. كان الفارق بينهما أكثر من عشر سنوات وأب مختلف ولون الشعر وتقاسيم الوجه والابتسامة... فروقات شاسعة. لم يحمل سامي أية مشاعر ودية للطفلة ولا أية مشاعر.

أثنى على أخته ووعدها بقضاء الصيف القادم معا. كانت الأم تسعى جاهدة، أكثر من اللزوم، لتشعره أنه ليس غريبا، لتخلِّيها عنه قبل سنوات. كان يقرأ في تصرفاتها توترا كلما حادثته، فبُعد المسافة لسنين خلق نحو ابنها غموضا. أصبحت تعيش بمفردها مع ابنتها بعد طلاقها فحاولت إعادة سامي إلى رعايتها لكن الأوان كان قد فات.

تحجج بأن لديه عمل لينهي المحادثة ودعته ولوحت الصغيرة تناديه بأن يأتي لزيارتهم قريبا ومر لشاشة الحاسوب الثانية. كان منشغلا بالبحث عن طريقة تمكنه من الوصول إلى المادة الشبح. عثر على إحداثيات المكان السري الذي سجن فيه الدواشع؛ تسلل إلى قاعدة البيانات الخاصة بجيش التحرير، من لوائح وعناوين قادته المختبئين إلى تعقبه لأرصدة الأموال، وبعد البحث في مئات الملفات وجد ما يبتغيه، لائحة السجناء

والمراكز الأمنية، لكن تظل معلومة يتيمة إذا لم يرغب السجين في عقد صفقة معه.

وضع سبابته على ذقنه مستعيدا أحداث البارحة، توقع أن يهاجم فصيل الأنصار من تنظيم داشع سيارات نقل السجناء وبدلا منذ ذلك نفذوا عملية تفجير في السوق الشعبي مما سيصعب عليهم تحرير زملائهم وكانت فرصة أيضا لمعرفة من هو علي ذاك.

ازدادت حدة الضوضاء القادمة من النافذة، كان الشباب يفضلون التسكع في آخر الليل على سطح العمارة حيث تقع شقة سامي. دق تَيم الزجاج ملحا عليه بأن يخرج بسرعة وقد تحلق حوله أربعة شباب آخرين تتعالى ضحكاتهم الهستيرية وهم يشاهدون مقطع فيديو نُشر على وسائل التواصل الاجتماعي.

لملموا ضحكاتهم عندما صعد سلام السلالم صارخا ينادي على تيم، واتجه نحوه قائلا: «سأربيك إذا أهلك لم يعرفوا كيف يربونك، هيا امسح هذا الفيديو الآن يا غشيم»

اختبأ تيم وراء سامي قائلا: «أقسم بالله العظيم لست أنا من صور الفيديو، العشرات كانوا يصورون ساعتها»

توارى أنف سلام المكسور تحت ضمادة بيضاء وقد ازرقت المنطقة ما بين عينيه من أثر اللكمة. بصق على الأرض ساخطا: «الله يلعن الفيس بوك والذي اخترعه ومن يصور ومن يفضح العالم والخلق»

سجل الفيديو لحظة جدال سلام مع الفتاة التي دافعت عن داشع علنا وتعنون المقطع 'داشعية بيبي ضد الشوارب الطويلة' انتهى باللكمة مترافقة مع موسيقى سخيفة وأيقونات دردشة تسيل منها دموع الضحك فجذب المشاهدات كأي شيء آخر غير مفيد.

قال وسام، أحد الشبان الذين يعملون بأجر في الفريق التطوعي: «أنا أقول فليجازي الله خيرا من نشر هذه التحفة الفنية، فلن نكون حينها قادرين على رؤيتك تضرب على يد فتاة في نصف عمرك»

أثارت الضحكة البلهاء على وجه الشاب حنق سلام أكثر: «تلك المعتوهة لديها يد كالجرافة لو لم أتق الله فيها ل...» أوشك أن يطلق سبة فتمتم مستغفرا، وأمر تيم: «امسح الفيديو أو سأمسح بوجهك الأرض»

– «أنا لا أعرف كيف، يمكن لسامي أن يفعل ذلك» ودفعه نحوه

حدج سلام سامي بنظرة دونية فهو لا يعتبره إنسانا كاملا ورد متعنتا: «امسحه إذا أردت ذلك»

وافق سامي برحابة صدر أو هذا ما أظهره للرجل الطويل ذي عقلية رجل الكهف منعدم الذكاء. كان سلام الحلبي شخصا متناقضا مع نفسه، يحسب أنه أعلى مرتبة من غيره، تفوح منه رائحة السجائر والحشيش، وفق معلومات سامي يشتري زاده من الممنوعات من عند رجل يدعى باهر، يعمل وسيطا بين مناطق الجبهة والنظام.

وقبل أن ينفذ طلبه أعاد مشاهدة الفيديو وأوقفه عند عبارة: "العم أبو يزيد لن..."، إذن لم أخطئ السمع حينها، وقرب الصورة أكثر ليتفحص ملامحها عن قرب. لم يخب ظنه، فقد كانت نفس الفتاة التي حاولت التسلل إلى المتجر هذا الصباح، كان مشهدا لا يراه كل يوم، امرأة مسلحة معلقة على حافة النافذة.

أزال الفيديو من الانترنت بعد حذف كل الروابط وتثبيته كفيروس واحتفظ لنفسه بنسخة، فشكره سلام على مضض حين أراه أنه لم يعد متاحا على وسائل التواصل الاجتماعي. علق عبد الصمد، وقد كان رجلا في الثلاثين، لديه رقبة سمينة تجعل رأسه يبدو كأنه منغرس بين كتفيه: «هذه أول مرة أسمع أحدا يدافع عن داشع علانية، على الأقل ليس خلف قناع،

تدافع عنهم وسط الحشود وتعبر عن وجهة نظرها بتلك الطريقة»

قال وسام: «أحقا؟ من يدافع عن قاطعي الرؤوس تعتبرها وجهة نظر»

– «الأمر سيان كالذي يدافع عن الضبع وحزب البعث، ماذا عن هؤلاء؟»

أما تيم فقال أول ما يخطر على باله: «لا أظنها شخصا سيئا، بصراحة أظن أنها شجاعة جدا»

كان الفتى الساذج محقا فيما يخص جرأتها لكن تصرف الفتاة ينم عن طيش وعدم التفكير في العواقب وأيضا لاحظ أنها لم تكن تدافع عن داشع تحديدا بقدر ما دافعت عن أبي يزيد وبغيرة شديدة وتمعن في صورتها فقد وجد خيطا جديدا يساعده في مهمته.

****

اكتفى سلام بالمشاهدة بينما يفرغ الشبان حمولة العربة، وبالرغم من وجود طاقم تصوير من قناة 'العربي الحر' فضل الانزواء خلف عربته وقاوم رغبته في الظهور على شاشة التلفزيون، ود لو يرسل لوالدته ويخبرها أن تتابع البرنامج

الفلاني وبما أن بصرها أضحى ضعيفا سيشير من أجلها إلى الشاب ذي القميص الكستنائي شامخ الهامة. لكنه الآن يضع نظارات شمسية متحاشيا نظرات الشبان الأغرار الساخرة.

متّع ناظريه وهو يدخن سيجارته بمراقبة الفتيات المتطوعات وهن في صدد تزيين مدخل المتجر ببالونات زرقاء وصفراء ووضع لافتات إعلانية استعدادا لافتتاح بيت البركة أمام المستفيدين، واستقرت عيناه حول خصر فتاة، غطت رأسها لكن نسيت أن تستر ذلك القوام الممتلئ وقد تمركز بصره حول البنطلون الضيق من الخصر ليصل إلى الساقين البضتين المثيرتين.

لاحظت نور، المشرفة على المتطوعين، وقوفه من دون عمل فأمرته بأن يطفئ السيجارة وأن يتبعها، دور عينيه فهو مجرد سائق يعمل بأجر زهيد قد يقبضه أو لا. أوكلت إليه مهمة نقل بعض الصناديق نحو الرفوف وأضافت: «عندما تنهي ذلك ستقوم بتسعير السلع حسب النقاط» ونادت على فتاة قائلة: «زهراء تعالي إلى هنا من فضلك»

ربتت على كتف الصبية قائلة: «حبيبتي، أرجو منك أن تشرحي لسلام عملية التسعير، كما علمتك»

أخفض سلام النظارة وشتم قائلا لنور: «ما الذي تفعله هذه هنا؟!»

ضربته نور لذراعه ممازحة بلهجتها الحلباوية: «ماذا تقول، زهراء ما شاء عليها أنهت ثلاثة رفوف لوحدها، ما شاء الله عليها سريعة، سريعة» وربتت على رأسها كأنها جرو وقد كان الامتعاض واضحا على ملامحها ثم ألحت عليهما بالإسراع في العمل.

تبادلا نظرة ملؤها الحقد والسخط وقال: «هل غيرت داشع عملها من قطع الرؤوس إلى الأعمال الخيرية أم ماذا؟»

عبست في وجهه مجيبة: «ولما ستفعل وهناك رأس يجب أن تجز» ومررت يدها على العنق فأدار رأسه يمينا وشمالا باحثا عن نور التي تضم كل من هب ودب.

أخذ يراقبها بحذر وهي تضغط على مكبس تثبيت الورق بطرفه الحاد كلما ألصقت تسعيرة على القطع التي تختلف عن بعضها البعض، فقد كانت بعض السلع المعروضة كالملابس أغراضا قدمها متبرعون. فجأة، التفتت إليه ولوحت بالمكبس ناحيته فتراجع خطوة إلى الوراء، قالت: «لقد أخطأت، النقاط الموضوعة للمعاطف تختلف عن القمصان الخفيفة»

– «و... وما شأنك؟ إني أعرف ما أفعل»

فرفعت اللائحة الطويلة نحو وجهه وقالت: «هل دماغك يعجز عن القراءة أيضا؟»

نزع الورقة الصغيرة لاعنا وأعاد وضع أخرى، لو لم تكن امرأة لرد لها الصاع صاعين واستمر في العمل الممل الذي يجعل المرء يريد شنق نفسه.

مر تَيم من جانبه فصاح من دون أن يلقي التحية: «هيه، أتعلم أن الفتاة الداشعية...» فبتر جملته حين لمحها تقف على بعد أمتار، فأخذ يتهامسان: «ما هذا أتصالحتما؟» «هل أنت أحمق؟ اذهب وأخبر نور، علينا إخراجها من هنا» «لماذا؟ تبدو فتاة لطيفة» فكاد أن يضربه: «يا الله، ليبك ألا تفهمون...» وصمت عندما حدقت إليهما بعينيها المفترستين.

ازدادت البلبلة بالخارج فاتجه سلام نحو النافذة، حط موكب من السيارات العسكرية مخلفا وراءه كومة من الغبار، سأل تيم عما يفعلونه فهز الفتى كتفيه من دون مبالاة.

تعرف سلام على قائد جيش التحرير وهو ينزل من سيارة جيب غالية الثمن، كانت صلعته تلمع من بعيد وبذلته الرخامية جعلته أكثر بدانة، يتحرك مختالا بأناقته المبتذلة وحراسه الذي يحمونه. كان شفيق حيدر عقيدا في جيش النظام وانشق أواخر السنة الرابعة من الثورة، متأخرا بشوط كبير عن أقرانه، فلم

يترك القوات النظامية إلا بعد أن هُزموا في معركة ضد قوات داشع.

في الوقت الحالي، تنقسم سورمادا إلى ثلاث شبه دويلات، القسم الأكبر استعاده الضبع بعد تدخل الروش، والأكراد أقاموا دولة في الشرق بمساعدة الأمريكان مقابل النفط، وها ذا المدعو شفيق يسعى إلى منافسة البغلاني على حكم الشمال ببضع أموال قدمت إليه من الخارج.

ألقت الصبية نظرة من النافذة المجاورة وذهب لونها فعلق قائلا: «ما بك؟ هل ظهر القط فارتعب الفأر؟»

أجابت بنبرة صوت عالية: «من تنعته بالخائف؟ حقا إنك زربول بن صرماية»

– «أنت بنت شرموطة...» فأوقفه تيم وقد كاد أن يوجه قبضته إلى فمها اللعين ذاك: «طول بالك أخي سلام، طول بالك»

قدمت نور بخطواتها السريعة نحوهم وقالت: «ما بكم توقفتم عن العمل؟ آه لقد جاؤوا»

سألها: «ما الذي يريدونه؟»

– «لا تبالي بهم، يريدون من طاقم التصوير أن يعرض أن جيش التحرير يساهم في الأعمال الخيرية وإعادة بناء المدينة

وهكذا ترهات» ووضعت يديها على خصرها: «إنهم يريدون أخذ كل الفضل على تعبنا، لا نمانع ما داموا لن يمنعونا عن إكمال مشاريعنا»

فقال تيم: «آه، لهذا الخالة فدوى لم تأتي اليوم»

– «المضحك في الأمر، أنهم يرغبون في مقابلتها بدلا من رجل سمين، لكن ما العمل فالسلاح يحكم» وصفقت بيديها: «ونحن سنكمل عملنا، هيا»

وجالت ببصرها قائلة لسلام وللصبية: «لقد أنجزتما الكثير، أحسنتما. ما شاء الله عليكما شاطرين» وصفقت بيديها مضيفة: «هيا من سيصعد إلى الطابق العلوي معي من أجل تسعير أغراض المطبخ والحمام» فاستغل سلام الفرصة وقال: «آسف أختي نور، زبون يتصل بي» فحضنت الصبية قائلة: «إذن أنا وزهراء سنكمل العمل»

****

مخيم الغول، شرق شمال حلبا أيار X021

تشابكت الأسلاك المدببة على مدى أطراف المخيم الواسع، وتشكلت قضبانه من الفقر والجوع. تجاوز سامي رفقة رياض خياما ممزقة تسربت إليها مياه المجاري المتسربة من

المراحيض الفائضة، كانت تعلو في الأجواء أصوات بكاء الأطفال وسعال النساء.

ضم المخيم أكثر من ستين ألف شخص من أربعين جنسية مختلفة، أغلبهم أناس من سورمادا والعراقة، بينهم أفراد عائلات مقاتلي التنظيم، إضافة إلى بضعة آلاف من عائلات المقاتلين الأجانب، حدد لهم قسم خاص تحت حراسة مشددة. تسود المخيم ظروف معيشية قاسية وتستفحل فيه الجريمة، كان عبارة عن سجن كبير في الهواء الطلق فلا أحد من قاطنيه يستطيع مغادرته إلا في حالة الطوارئ وبمرافقة من الحراس. تصيخ عيون الأطفال والنساء بالقهر والظلم تخفي وراءها قنبلة موقوتة. تجاهل الذين أعلنوا الحرب على الإرهاب أن استنباته وصناعته نتاج البيئة والظروف المزرية أولا أما عنصر الإيديولوجيا الدينية فما هي إلا محفز يضاف في الأخير.

انتظرهم موظف بإدارة المخيم الذي لم يطرح أسئلة كثيرة بعد دفع المال واكتفى بنصحهما بعدم الاقتراب من أحد إلا من خلف السياج أو القضبان حفاظا على حياتهما أو ليتجنبا الضرب، كان كلامه كوصية إدارة حدائق المحميات الحيوانية في أدغال إفريقيا.

عرض سامي على بضعة نساء صورة الفتاة وسألهن عن اسم 'زهراء نيسان' الذي عثر عليه في لائحة المتطوعين، لكن لا أحد منهن تعرفت عليها حتى بعد إغرائهن بالمال.

قال سامي لرياض وقد حرقت الشمس بشرته الشاحبة: «أهذه هي طريقتك المضمونة التي تبجحت بها على الهاتف؟»

– «لن يعرف داشعية إلا داشعيات مثلها» وعاد ينظر إلى الصورة: «وهل أنت متأكد من أنها واحدة منهم؟»

كان متأكدا، فما دامت الفتاة تدافع عن أبي يزيد بتلك الطريقة فلابد أن تربط بينهما علاقة وطيدة. فقال محدثا نفسه: «لو امتلكت شيئا كرقم بطاقة هوية، فيمكن البحث في قاعدة البيانات»

انفجر رياض بالضحك ورد: «قاعدة ماذا؟ هل هذا اسم حاسوب؟ قبل الثورة، كانت فروع الأمن ستوفر لك هذه المعلومة في غمضة عين، لكن تم تخريبها من قبل المتظاهرين، إذا أردت الحصول على شيء مفيد، عليك الذهاب للمدينة التي أتت منها»

لم يجبه وعقد ذراعيه، لو كان يعرف لَما أتى إلى هنا، فقد كان الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش. أخذ رياض يسأل الرجال محاولا اعتماد طريقة مغايرة، فصاح به أحدهم:

«استحيي من نفسك، فنحن لا نمعن النظر في الحريم» فرد عليه الآخر صارخا: «وماذا تظن نفسك؟ ملاكا منزها»

طرح على سامي الاتجاه نحو ملحق المخيم، كان مثابرا إذ لم يشأ الرجوع خاوي الوفاض طامعا في الدفعة الأخيرة. تفرقا يسألان النساء من خلف السياج، كان الملحق أقذر من المخيم الرئيسي، سجنت فيه عوائل المقاتلين الأجانب من داشع. كانت أغلب النساء يتحدثن بعربية ركيكة وقليل منهن من يجيد الإنجليزية أيضا.

مسح رياض عرقه بكوفيته وقال له مستسلما: «سأبحث من أجلك بين معارفي عنها»

تفحص سامي ساعته وقد انقضى من النهار معظمه ورفع نظره اتجاه أولاد يشربون من خزان مياه غسيل قذرة تطفو منها الديدان، أشاح بوجهه بعيدا عنهم متسائلا كيف يمكن لبشر العيش هنا.

كاد أن يعود أدراجه حين اقتربت امرأة قائلة: «سمعت أنكما تبحثان عن زهراء نيسان؟»

فابتهج رياض وهمس: «ألم أقل لك؟ الداشعيات سيعرفن بعضهن»

كانت امرأة تغلب على تقاسيم وجهها ملامح سكان شرق آسيا، توارى جسدها خلف رداء أسود خشن، سألها سامي: «ماذا تعرفين عنها؟»

– «وما المقابل؟» فأشار لرياض ليمد لها المال فنظرت إلى سامي وقالت بثقة: «مئة دولار»

مد لها رياض ما طلبت وتوعدها قائلا: «لا تفكري في العبث معنا، إني أعرف الموظفين وبكلمة واحدة مني سيجعلون حياتك جحيما»

خبأت المال داخل صدريتها وردت ساخرة: «جحيم أشد من هذا؟ لا أظن»

قال سامي بنبرة هادئة: «أرجو أن تعذري زميلي، إنه لا يقصد. أأنت مهاجرة؟ عربيتك لا غبار عليها»

– «شكرا، قد سعيت جاهدة لتعلمها في أسرع وقت قبل مجيئي إلى هنا» تنهدت ناظرة نحو الأرض واسترسلت في الحديث: «كان الطريق يسيرا، لا أحد أوقفنا أو حذرنا مما ينتظرنا. أذكر كم كنت خائفة في مطار تركيشا من أن يُكتشف أمرنا، أنا ورفيقة لي، لكن عامل الجمارك آنذاك ابتسم ساخرا حتى أنه لم يكثر الأسئلة بعد أن عرف أننا متجهون لسورمادا، بعد وصولي بأشهر فهمت مغزى تلك الابتسامة، كل شيء كان

مجرد خديعة لا غير» وعضت على شفتها متحسرة: «أفضل أن أعود إلى بلدي، إلى السجن المؤبد هناك، سيكون أهون بكثير من بقائي عالقة في مخيم الهلاك هذا» أبدى سامي تعاطفا مصطنعا ليكسب ودها وقد اتضح أنها كثيرة الكلام فأعاد سؤالها عن هدفه.

أجابت وكأنها تفكر في ماض بعيد: «زهراء... كانت معي امرأة في عنبر المجاهدات بهذا الاسم، أو الأحرى اسمها القديم. كانت المشرفة علينا أنا ورفيقاتي، آخ امرأة متصلبة بقلب قاس، لم تكن تتهاون في معاقبة إحدانا عند أي خطأ»

– «أكانت تربطها علاقة بأبي يزيد؟»

– «أجل، قد كانت زوجته» زوجته؟ كان أمرا غريبا بما أنها نادته بالعم، «عندها ظننا أننا قد ارتحنا منها لكن أصبحت أكثر تعنتا بما أنها تزوجت بمقاتل قيادي»

علق رياض: «هؤلاء الدواشع حقا يستمتعون بالحياة قدر ما يستطيعون، متزوج بفتاة بعمر ابنته، أهنئه على هذا»

حدجته بنظرة مستنكرة وقالت: «ابنته؟ لقد كانت أكبر منه سنا»

ولما عرض سامي عليها الصورة كان ما توقع إذ المرأة لم تتعرف على الفتاة. وقد رجح قبلا ألا يكون اسمها الحقيقي

زهراء نيسان، إلا أنه استمر في سؤالها لعله يعرف شيئا يفيده في بحثه: «هل كانت زهراء هذه مهاجرة مثلك؟»

– «لا، سمعت أنها كانت راهبة أو شيء كهذا، كانت تعيش في دير بإحدى القرى وتم أسرها ولولا أبا يزيد لأصبحت سبية تتنقل بين المقاتلين. الحقيقة لا أفهم لما تزوجها من المقام الأول، فقد كانت أكبر منه سنا وقبيحة، وأيضا كان برفقتها طفل، المرء يتساءل كيف لراهبة أن تمتلك ابنا. لابد أنها كانت في الماضي... أنت تعرف ما أقصد»

– «ألديك فكرة أين تعيش الآن؟»

أجابت نافية فأطرق سامي رأسه مفكرا وقد بدا أنه وصل لطريق مسدود آخر، فأردفت المرأة ناصحة: «إذا أردت البحث عنها فلتستخدم لقبها بدل اسمها، فلتسأل عن أم علي زوجة أبي يزيد، سيسهل الأمر عليك»

أم علي؟ «أتقصدين علي المجاهد الشبح؟»

اندهشت من معرفته بذلك وأجابت: «أنت أيضا سمعت به» وأطلقت ضحكة قبل أن تكمل: «لا أدري لما يحيطونه بكل هذه الهالة، إنه مجرد طفل مع بندقية وبعض المتفجرات ولا يستحق كل الجلبة التي يحيطونها بها»

تدخل رياض: «سمعت أنه رجل بالغ»

قال سامي: «إذن كم عمره؟»

فكرت محاولة التخمين: «رأيته عدة مرات لكن هذا قبل سنتين أو ثلاث، أظن كان في الثالثة عشر أو ربما أقل من ذلك»

– «ألديك صورة له؟ أو يمكنك وصف ملامحه»

– «صورة؟ لا أظن... على ما أذكر كان هزيلا، قصير الطول بالنسبة لعمره كما يمتلك وجها مخنثا بشعر أسود. لكن أجمل فيه هو تلك العينين الخضراوين، يخدعان المرء بجمالهما، حمدا لله لم يشبه والدته البغيضة»

كلما تعمقت المرأة في وصف علي هذا، كلما اتضحت الصورة لسامي أكثر، فأعاد يعرض عليها الصور من لوحه الرقمي وقال مؤكدا عليها: «انظري جيدا، هل هناك شبه؟»

فوضعت يدها على شفتيها: «أوه إنهما متشابهان لكن هذه... لقد ظننتها فتاة، آسفة قد اختلط الأمر علي بالشعر الطويل والملابس»

قال سامي: «إذن أنت تقولين بأن الشخص في الصورة هو علي»

هزت رأسها مؤكدة كلامه، سأله رياض هامسا: «كيف؟ أيعني هذا أن علي... فتاة؟»

اتضح أن الفتاة أخطر بكثير مما ظن، لكن ما الذي تريده من الفريق التطوعي؟ كما أنها قد تكون قد تعرفت على وجهه. ورغم هذا ارتسمت ابتسامة هادئة على محياه فقد عثر على بطاقة التفاوض التي كان في حاجة إليها.

****

أخذت زهراء نفسا طويلا وأطلقته، فقد كان نهار البارحة متعبا إلى حد الإنهاك والمخيف في الأمر أنها لم تنجز ما ذهبت من أجله، وبدلا من ذلك وجدت نفسها كالفأر في المصيدة وسط عشرات من مقاتلي العدو بمعنى الكلمة. أحست كأنه تم التلاعب بها، فقد كان للمشرفة طريقة خفية في غمر المرء بالمهمات التي تبدو في ظاهرها بسيطة وعندما يحاول النجاة تنسل بسلاسة كلامها وتغريه بالثناء ومن دون سابق إنذار يجد نفسه قد تورط في مهمة أخرى. كان الوضع أشبه بالغرق في دوامة تستنزف الروح والجسد.

حملت صندوقين كبيري الحجم من دون أن تنتظر أحد ليساعدها، ووزانتهما بين ذراعيها صاعدة إلى الطابق الثاني تراقب خطواتها على الدرج حتى لا توقع الصندوق العلوي. لمحها تيم من الأعلى فهب لمساعدتها وأخذه منها وكاد يوقعه

إذ تفاجأ بثقله. كان شابا قصيرا غريب المظهر؛ يلبس تشيرتا رسم عليه قوس قزح وتحته كتب 'كن متفردا جاك آس' وإن لم تفهم الكلمة الأخيرة. وسروال جينز ضيق وقصير أظهر قدميه الضخمتين اللتين تكادان تفران من الحذاء الأبيض الرياضي.

سبقته في الصعود بينما هو يتأرجح بين الدرجات، فوضعت ما بيدها على الأرض ونشلت الصندوق منه لبطئه في الحركة. أخذ الفتى وقتا للراحة عند منضدة خدمة الزبائن ثم عاد إلى حاسوبه. رتبت البضاعة الجديدة على الرفوف برفقة بضعة فتيات اللاتي كان عددهن ضئيلا مقارنة مع الشبان، كن يثرثرن بأفواههن أكثر مما يستخدمن أيديهن. لم تستطع الانسجام معهن ولا مع أي أحد، فقد اتضح لها أنها عُرفت في وسطهم ب 'الداشعية بيبي'، كان الوضع يثير حنقها والسبب صاحب الشوارب الدنيء، الأمر الذي جعل مهمتها أصعب، فلم ترسل شيئا مفيدا للجهة العليا. ليس كأنه يوجد شيء مثير يحدث في هذا المكان، فقد كانوا مجرد بضعة أناس مسالمين غارقين بترهاتهم اليومية.

أكملت ما بيدها وحين لمحت نورا قادمة اختبأت وراء المنضدة جالسة إلى جانب تيم، فشعره كان كأجمة من الأحراش. ضحك متمتما: «أهاربة من بيغ ماما؟» لم تفهم فحاول الشرح: «ندعو نور هكذا، أما مياس فنلقبه باللحية الشهباء بدل اللحية

البيضاء... تعرفين، كما في مسلسل ون بيس» كان كمن يتحدث بلغة ثانية بالنسبة لها، ربما كان يقصد أهمية نور ومياس بالنسبة للفريق، ففدوى كانت مجرد واجهة إعلامية في حين يتولى الآخران الأشغال الصعبة؛ فالمشرفة تسهر على تنظيم مهمات المتطوعين والمأجورين وتراقب سيرورة العمل بهوس، أما مياس فقد كان من يتكفل بالأشغال الميدانية وتتبع صرف التبرعات.

صعد الشاب الأشقر الذي جاء لتوه، كان يحمل على كتفه اليمنى حقيبة حاسوب محمول ويضع ساعة رقمية على معصمه تبدو غالية الثمن. ارتدى قميصا رياضيا رماديا قصير الأكمام مع سروال من الدنم الأسود الخفيف، ملابسه بالرغم من بساطتها إلا أنها مرتبة إلى حد مريب كتصرفاته.

شغل ماسح الباركود وقام بتوصيله إلى حاسوبه لمعاينته. كان تيم في تلك الأثناء يحمّل صورا على الموقع لمنازل صغيرة بتصاميم متشابهة فسألته: «لمن هذه؟»

– «ليست لأحد بعد، إنها المنازل التي أشرف فريق الجمعية على بناءها ضمن مشروع 'قرية الأمل'» وفتح صفحة إشهارية. وضعت زهراء خدها على يدها تقرأ ما دون عليها، تروج لمنطقة سكنية سيستفيد منها النازحون الذين لا يملكون

بيوتا، ووضع أسفل الصفحة رابط للتبرع، فعلقت تكلم نفسها: «لابد وأنهم يتسلمون أموالا كثيرة»

– «عفوا؟»

– «أقصد، إنها فكرة جميلة»

– «أجل، الخالة فدوى تسعى لجمع المزيد من التبرعات، ستكبر المنطقة السكنية لتصبح كقرية، وسينشأ فيها حدائق وملعب، وأيضا مدرسة» كان يتحدث وهو ينقر على صور التصاميم المستقبلية ليعرضها عليها: «فيها سيجمع شمل الأهالي الذين فقدوا أبناءهم في الحرب مع اليتامى ليصبحوا سندا لبعضهم البعض»

يا لها من فكرة حالمة، ربما ستتحقق في عالم الخيال: «لابد أن الأستاذة فدوى عبقرية، هل هي خالتك حقا؟»

– «كلا، كانت صديقة مقربة لوالدتي، فقد كانتا معا ضد الضبع ونظامه حتى قبل أن تبدأ الثورة»

– «إذن والدتك ناشطة أيضا؟»

– «كانت، رحمها الله» وابتسم بحزن

– «لم أقصد أن أذكرك، لابد أنك تشتاق إليها»

– «أحيانا، لكن هنا ضمن الفريق أشعر وكأني وسط عائلة» ولاحت ابتسامة بلهاء على وجهه. عائلة؟ لما هذه الكلمة صعبة الحدوث، كلما ظنت الصبية أنها امتلكت واحدة، اختفوا واحدا تلو الآخر، حتى الأم زهراء التي كرهتها... لا، لا تذكريها بعد الآن، فقد ماتت هذه المرة.

اتجهت نور بخطواتها السريعة نحوهم من دون أن تترك مجالا لزهراء لتختفي عن ناظريها. قالت موجهة الحديث للشاب الأشقر: «سامي أقلقتني عليك يا فتى عندما لم تأتي البارحة، هذه ليس من عادتك» وربتت على كتفه: «ليس شيئا سيئا لا سمح الله، أليس كذلك؟»

– «كلا إنه مجرد ظرف شخصي، لا تقلقي لقد أنهيت العمل الموكل لي»

وأشارت إلى الجهاز: «إذن، هل كل الماسحات جاهزة؟»

– «أجل، تم تعييرها كما طلبت»

– «ومن أجل...»

– «إذا كنت تقصدين معالج الدفع الجديد من أجل استقبال التبرعات، فقد قمت بدمجه على الموقع وانتظر موافقة مياس لاختباره»

وضربت كفيها ببعضهما قائلة: «يعني أنك انتهيت حقا، ما شاء عليك نبيه، نبيه. إذن ما رأيك أن تنضم إلى ترتيب...»

_ «أخشى أني لا أستطيع»

– «ماذا عن حمل...»

– «للأسف، هذا ليس مجالي»

كان يصد نور اللحوحة بطريقة وقحة ومؤدبة في الوقت نفسه. التفتت زهراء إلى تيم هامسة: «كيف يقوم بذلك؟»

رد مقتربا من أذنها: «لهذا نسميه بارد الأخلاق» فأطلقا ضحكة مكتومة، نظرت نور نحوها: «زهراء حبيبتي، إذا انتهيت، اتبعيني»

تمتمت لتيم: «أوبس، أليس هناك أمل في أنها لم تلاحظني بعد؟» فوضع الفتى يديه حول عنقه بمعنى أن الأوان قد فات.

كلفتها بمزيد من الترتيب إلى أن انقضى النهار، هذا اليوم أيضا لم تقابل فدوى أو أي شخص مثير للاهتمام، حقا ما الذي يسعى إليه أبو حمزة الملعون؟

انتظرت زهراء قرب لافتة الحافلات على أمل أن يمر ميكروباص. توردت السماء من خلف البنايات قبيل المغيب واشتدت الحركة مع اقتراب وقت حظر التجوال. غادرت نور

المبنى رفقة بعض الشباب منهم تيم، كانوا يأتون ويذهبون كعصبة، فلما لمحتها قدمت إليها قائلة: «زهراء، لا زلت هنا؟ لابد أن أهل الدار سيعاتبونك على التأخر» هزت كتفيها موضحة أنها ليست مشكلة.

– «أستحضرين افتتاح المتجر غدا؟ سيكون صعبا أن تذهبي وترجعي في الصباح الباكر، أين قلت إنك تسكنين؟» هرشت زهراء مقدمة رأسها فهي لم تخبرها أساسا وردت مرتجلة: «نواحي قرية علين»

– «أوه، هذا بعيد جدا» وضربت كفيها، الحركة التي تخيف زهراء أكثر من أي شيء في هذه المرأة واقترحت أن ترافقها إلى مكتب المنظمة مفسرة: «سيجتمع أغلب الأعضاء هناك، ويمكنك المبيت بدل الذهاب والرجوع في الصباح، هذا إذا لم يمانع أهل الدار»

لم تتخيل زهراء أن تأتيها فرصة كهذه. حاصرتها نور بين ذراعيها قائلة: «يمكنك المبيت إلى جانبي، فتاة صغيرة الحجم مثلك لن تأخذ حيزا كبيرا» ابتسمت الصبية بصعوبة متسائلة كيف يمكن لها أن تثق بها بهذه السهولة.

استقلوا سيارة تحمل شعار المنظمة، داخلها أشبه بغرفة أحد ما، أغطية على المقاعد وخيوط الحواسيب ملتوية هنا وهناك،

كؤوس قهوة متسخة، معدات للرحلات وطاولة لاب توب محمولة. أخذت مكانا بين تيم وفتاة تضع شالا ورديا يتناسب مع لون شفتيها. جلس مياس في الأمام، همس لنور بكلام لم تسمعه لكن تعلم مضمونه إذ لم ينس موقفها عند حادثة السيارة المفخخة، وشغَل الشاب الأشقر المقعد في الزاوية يطقطق على لوحة مفاتيح حاسوبه واضعا سماعتي أذن، ربما هو بالأخير مجرد تقني مهووس.

ركب سلام صاحب الشوارب في مقعد السائق بعدما أطفأ سيجارته وشغل المحرك، وحين أدار رأسه ليرجع بالسيارة إلى الخلف رآها فقال: «أعوذ بالله من همزات الشياطين» فأدارت زهراء رأسها جانبا فلن تجادل هذا السفيه من جديد.

علق تيم ضاحكا: «لقاء الأحبة دائما ما يكون مشحونا»

صاح سلام في وجه نور: «ماذا تفعل هذه هنا؟»

فلاحت بيدها مهدئة: «إنها ذاهبة معنا»

– «وإلى أين؟ إن شاء الله لا تكون ثكنة أبي بكر البغذاذي»

هدّأ مياس من روعه وشغّل المذياع على ألحان أغنية شعبية فأخذ تيم يردد مقاطعها فرافقته نور بصوتها النشاز، فانضم سلام بغنائه الذي تجاوز غناءها سوء. علقت الفتاة صاحبة الشال الوردي: «لقد خربتم الأغنية يا عالم»

قهقه سلام وزاد من ضجيجه متعمدا، يردد: 'عالالا ولالا... وليش الزعل يابا... وهي ما زعلت مني... هي زعلت لحالا'

حثّ تيم زهراء على الغناء معهم قائلا: «ألا تحفظينها؟» كانت تحفظ مقاطع منها لكنها لم تشأ أن تبدو سخيفة مثلهم.

فقال سلام: «اتركها فالأغاني عندهم حرام» وغير المحطة باحثا عن أغنية أخرى مفسدا الأجواء على الآخرين، فصفقت نور قائلة: «بلاها المذياع، خلونا نغني مع بعض، ليك تيم اعزف لنا شيء»

– «غيتاري ليس في حوزتي الآن»

لم يتوقف صاحب الشوارب القبيحة عن السخرية منها أمام رفاقه، «لما لا تسمعنا الداشعية صوتها، فقد تغني لنا كورالا للجهاديين»

فأجابته بابتسامة لطيفة: «للأسف لا أحفظ شيئا كهذا إلا أني أعرف أغنية قديمة، ما رأيكم؟» وصفقت بيديها الاثنتين، لا بأس ستكون سخيفة وتخرس هذا الأحمق: 'زمرينا ورقدينا' وضربتان 'لصفريتو شهرينا' ثم نغمتان 'زمرينا ورقدينا' ضربتان 'لصفريتو شهرينا' ثم تتابع اللحن وكلمات الأغنية وقد شاركتها صاحبة الشال الوردي الذي تبين أنها تحفظ الأغنية أيضا،

أغنية من أيام الدير، رددتها كما كانت فتيات القرية يفعلن بين أشجار حقل الزيتون.

انضم الآخرين تباعا حتى صاحب الشوارب، ثم تبدل الإيقاع لأغنية أخرى، لم تتعرف عليها زهراء لكنها دندنت معهم على كل حال. حام جو من الألفة بينهم كأنهم يعيشون في عالم بعيد عن الصراع مقتطعين وقتا لأنفسهم رغم الظروف.

استدارت السيارة إلى طريق فرعي من شارع خالد بن الوليد وقد اقتربوا من حاجز تفتيش، فخرسوا جميعا وجهزت زهراء نفسها للتفتيش كالعادة. امتد صف طويل أمامهم، فتأوه تيم: «إلى متى ستستمر هذه الحواجز؟ لقد مللت منها»

رد سلام: «انظروا من يتحدث؟ أنت لم تكن هنا حين كان على المار أن يخمن هل هذا حاجز تابع للنظام أو المعارضة، كان الأمر مثل اللعب بقطعة نقدية، يا إما الموت أو الحياة»

تنهد مياس وقال: «لم يكن هذا ليعقيك أخي سلام، فلقد كنت صديق الكل»

– «لقد أفلح الأمر فها أنا حي يرزق، أُختطفت مرة وعدت سليما معافى قطعة واحدة كيف؟ تفاهمنا وتعارفنا أنا والخاطفين وهذا ما يسمى دبلوماسية»

أخفض سلام السرعة تدريجيا عند اقترابه من نقطة التفتيش إلى أن توقف عند السلك الشائك. تبادل تحية ودية مع الضابط وسؤاله عن حاله وحال عائلته، في حين ألقى زميله نظرة سريعة على الركاب ثم تركهم يعبرون من دون أسئلة، ربما هذا الأحمق ليس أبلها تماما.

كان المكتب يقع في مبنى خصص أكمله للمنظمة، صعدوا درجات معدودة وراءها باب زجاجي بقسمين، ونحتت حروف معدنية ضخمة على واجهته بالأحرف الإنجليزية تقرأ 'ياسمين' تلمع بألوان براقة ومن فوقها مجسم لكوكب بنفس ألوان. في حين علقت راية الثورة بألوانها الثلاثة الرتيبة، منحنية بكسل بأعلى البناء، تبتدئ بالأخضر وتنتهي بالأسود ومن بينهما يقبع الأبيض رمز السلام تجاورها الراية التركيشية الحمراء.

تفرقت المجموعة إلى ثنائيات فور نزولهم، رافقت زهراء صاحبة الشال الوردي وقد تجلى لها أن صفة الداشعية أخذت تتبدد بعد غنائها معهم. تقدم سامي الآخرين وحيدا وفتح الباب للفتاتين لتدخلا أولا.

كان المدخل عبارة عن قاعة فسيحة، على الجهة الشمالية مصعد وفي الوسط منصة استقبال، فاحت رائحة الطلاء من الجدران ومن أرضيته تبين أنه قد أقيم ترميمه منذ فترة قصيرة. كان من الواضح أن المنظمة تتلقى تمويلا كبيرا من رعاياها.

اتجهت زهراء نحو المصعد قبل الفتاة، فرن شيء ما، حامت حولها متسائلة عن مصدر الصوت فاقترب رجل الأمن مشيرا إلى كاشف المعادن الذي مرت من تحته وطلب منها الوقوف في مكانها. نصحتها الفتاة قائلة: «يحصل لي هذا أحيانا، من الأفضل أن تضعي المفاتيح على الطاولة جانبا»

لكن زهراء تعرف أن المشكلة ليست في المفاتيح. مر الآخرون قبلها واحدا تلو الآخر وقد لاحظوا غرابة سلوكها والبواب ينتظر أن تفرغ ما في جيوبها. فكرت أن تعود أدراجها مدعية حدوث طارئ لكن هذا سيجعلها موقفها أكثر غرابة، كما أن الدخول إلى المكتب فرصة لا تعوض، تبا، إنهم يحدقون بالفعل.

ألح رجل الأمن عليها فخاطرت ووضعت المفاتيح أولا ثم انحنت إلى عنق جزمتها الطويلة وسحبت مسدسا صغيرا ومن القدم الثانية مشط الذخيرة الإضافي، والأسوأ كان معلقا على خصرها تحت السترة المخططة، مسدس بريتا من طراز 92ف.

ومرت تحت كاشف المعادن فرن من جديد بصوته المشؤوم، كانت دائما تنساها، سكين الجيب المخبأة أسفل صدريتها على الجهة اليسرى ففتشت عنها ووضعتها إلى جانب عتادها. تبادل الجميع نظرات مرتابة، فهزت كتفيها وتحججت قائلة:

«ضروري أن يحتاط المرء جيدا لانعدام الأمان هذه الأيام كما تعلمون»

ابتعدت الفتاة الوردية إلى الخلف، فأطلق سلام صفيرا وأجاب: «ليبك المعارضة ولا تملك هذا الكم من الأسلحة» وأشار إلى نور: «أرأيت؟ هذا ما حذرتك منه»

دنا مياس من الصبية وسألها بجدية: «قولي الحقيقة، لما تحملين هذه الأشياء؟»

أخفضت رأسها نحو الأرض وأرخت عينيها كقطة مهجورة ثم أجابت: «إني أعيش وحيدة بعد وفاة والدتي، ولا أستطيع البقاء في البيت من دون حماية خوفا من اللصوص، كما أن التنقل لوحدي لم يكن سهلا» وتنشقت كأنها تحاول منع خروج الدموع فتراجع الرجل حائرا في أمره.

تدخلت نور قائلة: «الفتاة لم تفعل شيئا سيئا، نصف الخلق هنا يجولون بأسلحتهم»

فوافق على مضض وقد ظهر لها أنها تحسنت في دورها كزهراء وقبل الدخول إلى المصعد أرادت أن تستعيد أسلحتها فأوقفتها نور قائلا: «قطعا لا، هذه الأشياء ستبقى بحوزة أبي فواز» وقصدت رجل الأمن: «هذا المكان آمن فلا داعي للخوف»

ظلت عينا الصبية مصوبة نحو مسدس بريتا غالي الثمن الذي سيبيت في صندوق ما من دون عناية واستقلت المصعد وهي تتحسر على قطعتها الثمينة.

****

تفرقت مكاتب مجهزة على مساحة مفتوحة كل أربعة منها شكلت طاولة دائرية بأسطح بيضاء لامعة، وقد علقت صور لمجموعات من المتطوعين مع أناس تعلو على محياهم السعادة، وزين المكان بلوحات ملونة ووجوه مبتسمة ترافقها شعارات عن مستقبل أفضل، ورتبت في بعض الزوايا أصص نباتات صناعية. عجت المكاتب بالحركة ورنين الهواتف يتعالى مع أصوات العاملين، كان البعض يلقي نظرة عليها من بعيد وهم يتهامسون. تحاشت الفتاة صاحبة الوردي النظر إليها وابتعدت مع رفيقتها وهي توشوش لها في أذنها.

لم تبالي زهراء بهم فقد دخلت عرين الأسد. نقبت ببصرها أرجاء المكان وقطعت رواقا يفصل بين شقتين. في الجهة المقابلة افترش البهو بأثاث صالون قديم يقابل شاشة عرض مسطحة، وبيانو افترشت له سجادة، أمامه شرفة تطل على الشارع. لكن ما أثار انتباه الصبية هو المكتب الذي توسط المكان، خلف زجاج نافذته الكبيرة كانت فدوى تتحدث مع رجل

يرتدي بذلة رسمية داكنة. تجلس على نصف كرسي جامعة ساقيها إلى الجانب وتحرك يديها بشكل خجول. ارتدت قميصا حريريا أبيضا قصير الأكمام على حد الكتفين ووضعت قلادة ذهبية حول عنقها.

لم تستطع زهراء أن تسمع شيئا من خلف الباب فاتجهت نحو الشرفة واقتربت من حافتها، فقد كانت النافذة الثانية للمكتب قريبة منها، وصلت إليها همهمات الرجل لكن لم تكن واضحة، فصعدت فوق الحافة ودنت من النافذة أكثر محاولة استراق السمع... «إذا اقتربت فقد تعلقين على حافة النافذة ثانية» التفتت هلعة، فقد كان الشاب الأشقر يقف خلفها عاقدا ذراعيه وأكمل وهو ينظر إلى الشارع في الأسفل: «أو ربما تقعين»

جمعت خصلات شعرها إلى الوراء وقالت: «لقد كنت أحاول أن أحصل على مشهد جميل للبلدة من هنا» ثم نظرت إلى الشارع المزدحم بالسيارات وإلى العمارة الرمادية التي تسد الأفق.

– «إن الآنسة نور تبحث عنك» وأشار إليها وهي تحثها على المجيء، ارتعبت من أنها تسعى لتوكيل مهمة أخرى إليها.

دخلت إلى قاعة تحولت إلى غرفة للطعام تزاحم داخلها أكثر من عشرين شخصا يحومون حول موائد مستطيلة في صخب.

قالت نور مفسرة: «نتناول الطعام معا حين نعمل لساعات إضافية» وأجلستها على أحد الكراسي، توزعت صحون من المجدرة على المائدة وكؤوس الشاي، وقد كان الوقت ملائما بما أن الجوع كان يقصف بها.

غيّر تيم مكان جلوسه إلى جوارها وقال: «ما حدث قبل قليل كان مذهلا، أخبريني أتجدين استخدام هذه الأسلحة؟» لم ترد على سؤاله الغبي، ملأت صحنها من المجدرة، والتمعت عيناها حين لمحت قطعا من الكيك بالشوكولا وسط الطاولة، لاحظ تيم ذلك فمد لها قطعة فقد كان يتصرف بلطف زائد.

سرحت بنظرها حول الطاولة قائلة: «هل هؤلاء كلهم متطوعين؟»

أجاب: «منهم من هو متطوع وناشط» وقدم تيم تعريفا لكل شخص على حدا وأخذ يثرثر من دون توقف. حاولت حفظ الأسماء ورؤية من يشكلون خطرا لكنهم كانوا مجموعة من الأشخاص بقصصهم النمطية. فممن تذكرت أسماءهم؛ جون محامي وكان عضوا في الائتلاف السورمادي قبل أن ينضم للحركة، أما الذي يجلس قبالته، ياسر ذو الشعر الطويل واللحية غير المشذبة، كان صحفيا ومراقبا في مرصد حقوق الإنسان والتجأ لتركيشا عدة سنوات. على الجهة الأخرى، ديمة الحلبي أيضا كانت في تركيشا وتدير إذاعة خاصة لها، وأحمد

كان مقاتلا في البداية مع مليشيات المعارضة قبل أن يهرب إلى الجوردن ثم إلى مصراوة وبعدها إلى الجزاير ليستقر بجلمانيا. هؤلاء هم من علقوا في ذاكرتها من كثرة الأسماء ومسارات حياتهم لكن شيئا واحدا مشتركا فيما بينهم وهو ألا أحد منهم عاش على أرض الوطن طوال الحرب الأهلية ربما عاش بعضهم هنا ببدايتها لكنه لم يطل البقاء.

وقف سلام خلف تيم وضربه على قفاه قائلا: «أيها الثرثار الأحمق، لم تخبر كل من هب ودب عن الآخرين» ثم سحب كرسيا وجلس بجانب زهراء: «أرى أنك على راحتك يا آنسة، نحن نرحب بالجميع فالضيف يظل ضيفا فكما قال الرسول من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، حتى وإن كان لا يستحق»

فردت: «وقال أيضا من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»

تنحنح قائلا: «فمك السليط لا يجيد سوى الهجوم»

– «إذن احمد الله أني أهاجم بلساني الآن بدلا من قبضتي»

اقترب أكثر وقد فاحت منه رائحة أسوأ من تبغ السجائر: «لو لم تكوني امرأة لأذقتك قبضة الرجال الحقيقية»

– «كم أرغب في أن أراك تحاول بدل الاختباء بحجة سخيفة» كور قبضته فتدخل تيم ودفع بقطعة كعك نحوها وكأس شاي إلى سلام مهدئا الأجواء.

ألقت نظرة إلى سامي الذي جلس في الزاوية بالطاولة المقابلة، كان يتفحص هاتفه منعزلا عما حوله، ساورها حدس بأنه كان يتبعها عند الشرفة، فلما رآها تنظر إليه أشاحت ببصرها بسرعة.

سألت تيم عنه قائلة: «أأنتما مقربان؟»

هز كتفيه: «ليس كثيرا، لقد التقينا قبلا في فرنشا مرات قليلة»

قال سلام بتهكم، راشفا من الشاي بصوت مسموع: «إنه مجرد لقيط، يقال إن أباه أجنبي وغير معروف، بمعنى أنه ضائع الجينات والهوية والعرق، ليس بإمكانك أن تطلقي عليه عرفا أو جنسية أو صبغية محددة» وأطلق آهة ساخرة

رد تيم: «الأمر ليس هكذا، قيل إن أمه أنجبته خارج إطار الزواج»

إذن فهو لقيط حقا، صفة مناسبة لمخبر، والتهمت قطعة الكيك في مضغة واحدة. قامت بجولة حول أرجاء المكان لكن تيم لم يتركها لحظة واحدة كان يتبعها كالجرو، فقررت أن تبحث أكثر عند حلول الليل إلا أن أغلب العاملين قضوه في العمل.

افتتح بيت البركة للزوار صباحا، تكلفت زهراء بالمساحة المخصصة بالملابس، تساعد الزبائن وتجيب على أسئلتهم، كان يُصعب عليهم فهم عملية الكوبونات والنقاط فتقوم بشرحها كل مرة بابتسامة.

عند الانتهاء من انتقاء بضاعتهم، يُقدم للزبائن المغادرين أكلة مجانية وقد جهزت في الباحة الأمامية كراسي وطاولات وبالقرب منها مراجيح وألعاب مخصصة للأطفال. صدحت الأغاني مرافقة ضحكات الأولاد وصيحاتهم. انتشر أعضاء الفريق بستراتهم البنفسجية ليحافظوا على سيرورة العمل كما خطط له، كانت نور تجول من بقعة إلى أخرى تتأكد من أن الجميع يقوم بمهامه الموكلة إليه، في حين كانت فدوى تقابل بعض الزبائن وتسأل إن كانت التجربة قد أعجبتهم.

أقفل المتجر أبوابه على الساعة الرابعة مساء بعد انتهاء لائحة المستفيدين الذين حصلوا على الكوبونات، فقد كان يوما تجريبيا لتعميم الفائدة على شريحة أكبر من المحتاجين. نظفت زهراء الباحة وأدخلت الطاولات مع مجموعة من الشباب. كان دور زهراء المؤدبة صعبا لكن النهار مر سريعا وقد شعرت بأنها قامت بإنجاز الكثير حتى وإن ولم تحقق شيئا كبيرا من مهمتها الأصلية، فالبارحة أرسلت ما وجدته مهما لمعاون الأسدي، ولم يكن أكثر من بضعة أسماء وموعد الافتتاح.

كانت نور في الداخل تحصي البضاعة وتدون ما يلزم من بضاعة، أعادت تثبيت غطاء رأسها مشمرة عن ذراعيها ومن حولها ينقص عدد العاملين الذين أخذوا استراحة في الخارج. قالت لها زهراء: «لقد أكملنا تنظيف الباحة، أفي حاجة للمساعدة؟»

– «ما شاء عليك مجدة، مجدة» وقرصت خدها ممازحة، «فلتأخذي استراحة، لم يتبق لي إلا أن أتحقق من الطابق الثالث» وصعدت الدرج حاملة مذكرتها التي لا تفارقها.

وقبل أن تخرج، أخذت زهراء علبة سكر وقعت على الأرض وما إن وضعتها في مكانها على الرف حتى ارتفعت العلب والقوارير في الهواء، للحظات كل شيء صار في الهواء ثم أظلم المكان.

****

X013

هناك في الجوف العميق بين العروق إلى الوريد الذي يتصل بالقلب مباشرة وعلى يمينه الأنفاس الصاعدة والنازلة، هناك في تلك البقعة الوسط يسكن طيفها غارق لا ينادي باسمه لا يتخيل قسمات وجهه لأنه يريد أن يعيش، أن يستمر في الحياة ولكل قدره ونصيبه، فلما العتاب ولما الحسرة فكل شيء يصل إلى نهايته.

كانت له فتاة يحبها منذ زمن...

تأكد سلام من جيبه ثانية يتحسس الخاتم بين طياته وقد غلبه الحماس ليسمع ردها، فأحس بالحرج من نفسه ورفع رأسه إلى السماء المتلونة بدرجات من الوردي، حاول أن يمنع نفسه من الابتسام من شدة اللهفة. وتحت شجرة دللها تشرين فكساها بلون الخريف الكستنائي لمحها تختبئ لكي تفاجئه، تسلل من خلفها وأطلق صرخة ممازحا. قفزت من مكانها ثم انقلب فزعها إلى ضحكات هيسترية من الاثنين معا لكن علت الخيبة ملامحه حين علم أن لن تخرج معه اليوم، فوالدتها منعتها.

ابتسمت وقالت عابثة: «أعدك بأني سأعوضك بموعد آخر»

– «بالتأكيد ستفعلين، ليبك عنترة لا يستطيع العيش من دون ليلى» وقبل أن تغادر أمسك بمعصمها وسحبها نحوه بلطف وقال لها: «لقد اشتقت إليك» توردت وجنتاها وقد كانت عيناها ترقصان من الارتباك والخجل وقالت: «ماذا تفعل يا سلام؟»

أخذ الخاتم من جيبه ووضعه على إصبعها النحيف قائلا: «إنه يناسبك تماما» ضحكت بصوتها الرقيق وقد احمر وجهها أكثر، سمعا خشخشة قادمة فقالت: «ربما هي أمي، علي الذهاب» وحين ابتعدت خطوات توقفت وعادت إليه لتطبع قبلة

خفيفة على خده وغادرت مسرعة وعيناها الخجولتان تنظران إلى الأرض.

كانت خطواته في طريق عودته كخطوات رجل ثمل ورأسه معلق في الهواء.

كانت تراسله كل ليلة، يجافيه النوم وهو يقرأ رسائلها في شغف، كانا يعرفان عن بعضهما كل شيء، تخبره بتفاصيل يومها ويحكي لها عن نهاره أيضا. طالت فترة خطوبتهما لأزيد من عام، كان سلام يحاول إيجاد عمل ثابت ليستأجر شقة أكبر ويؤثثها وهي كانت تنتظره بصبر.

لكن بعد فترة لم تعد تتحدث معه كما كانت تفعل، يراسلها فتختصر كلامها، تجيبه برسالة مقتضبة، أدرك أنه جعلها تنتظر طويلا. صار العمل متوقفا بعد توتر الأوضاع في المدينة واجتياح المظاهرات كل ركن فيها. اصطبغت جدران المحلات الموالية بألوان الراية السورمادية؛ أحمر، أبيض وأسود والنجوم الخضراء في الوسط، هل كان مواليا؟ لا. ثائرا؟ كلا. صار يعمل بأجر لدى كل من أراد نقل شيء، ما هو هذا لا يهم.

في تلك الليلة الطويلة لم ترسل خطيبته شيئا وبدلا من ذلك اتصل والدها أبو نورة لينبئه بالفاجعة.

أُختطفت الشابة في وضح النهار حين كانت عائدة من منزل أحد صديقاتها، قيل إنها عصابات مسلحة، انتظروا أياما... بحثوا في كل مكان وسألوا كل من استطاعوا. لا أثر، لقد تبخرت ثم وصلت أخبار من المختطفين يطلبون الفدية، كل ما عرفوه أنهم من التنظيم الإسلامي الذي أخذ ينتشر والذين يحبون قطع الرؤوس. سقطت أم نورة في غيبوبة وأبوها المعدم من أين له بذلك المبلغ الخيالي. هب سلام من مكانه واختفى أسبوعا كاملا وعاد يوم الجمعة، باع كل ما عنده والذي لم يسدد حتى نصف ما يطلبونه وحين لم يكف باع كليته، شرف خطيبته أغلى من أي شيء آخر.

ذهب حيث أمره الخاطفون عند الطرف الجنوبي للمدينة، وقفت سيارة ترجل منها شخص ملثم ومسلح، «أين المال؟» «أين الفتاة؟ لن أعطيكم شيئا حتى أراها» «أتريد أن تموت؟» ولاحت فوهة البندقية أمام عينيه، في الوقت نفسه علا صوت مكابح سيارة عناصر الأمن الذين لا يعلم سلام كيف وصلوا، اهتاج المسلح فسحبه معه بكل ما لديه وهو يصرخ: «يا ابن الشرموطة أنت تعمل مخبرا أيها الحقير؟» «أقسم بالله ليس لدي أدنى فكرة، لا أعرف من أين جاؤوا»

صار سلام في الصندوق الخلفي للسيارة التي انطلقت بسرعة جنونية وأصحابها يتبادلون النار مع الأمن إلى أن استطاعوا الإفلات.

في إحدى القرى التي صارت تحت سيطرة الدواشع، احتجز سلام في قبو، أخذوا المال وثيابه وجلدوه لكي ليعترف بما يعرف وهو كان يردد: «أحلف بالله لا أعلم شيئا» ثم يردد اسمها يخبرهم أنه يبحث عنها، ومرت أشهر ظل فيها محبوسا في الظلمة ومع كل طلوع شمس يقول هذا اليوم سيقطعون رأسي ولا يفعلون لأن لديهم أشياء تشغلهم وفي الليل ينادي باسمها فإن كانت محبوسة هنا أيضا فلربما تسمعه.

بعد خمسة أشهر وإحدى عشر يوما حين رمى فتى الطعام وعاء من العدس البائت كانت إلى جانبه امرأة منقبة، امتزج سواد ثيابها بعتمة القبو الرطب. دفنت بعض الليرات في يد الفتى وقالت: «فلتعد بعد عشر دقائق»

ظن سلام للحظة أنه يتخيل، كان صوتها مألوفا له وتأكد حين قالت له: «كيف حالك؟»

– «أهذه أنت؟ حمدا لله» ثم اقترب أكثر منها وغير مصدق ما ترى عيناه، صاح: «هل آذوك؟ أخبريني أقسم بالله سأقطع يد كل من يمسك بسوء حبيبتي» وحين حاول أن يمسك بيدها

أبعدتها وقالت: «أنا آسفة لأني تأخرت في الرد عليك، لم أكن أعلم أنك ستأتي إلى هنا لتبحث عني»

أجاب بحماسة وابتسامة واسعة: «ماذا تقولين؟ من أجلك سأقطع البحار والجبال، سأفعل ما لم يفعله عنترة لحبيبته ليلى»

ردت بنبرة أحس فيها بجفاء وبرودة: «سلام الحقيقة أني... لقد وجدت ما أريد هنا، الله أراد هدايتي وفتح عيني لطريق الحق، يمكنني أن أطلب من زوجي أن يساعدك إذا أردت الانضمام، كل ما عليك هو مبايعة الخليفة وأعلم أنك شخص فطن»

– «توقفي هنا، أظنك قلت... زوجك؟»

خفضت رأسها المحتشي بالسواد وأجابت: «فلتسامحني لأني لم أكن صريحة معك منذ البداية، لم أعرف كيف أخبر أحدا بهذا، التقيت بأبي عدي بعد سنين طوال، معه وجدت من أكون بعدما كنت ضائعة، هنا أشعر بأن لوجودي فائدة. كان علي إخبارك بشيء قبل أن أختفي لكني لم أستطع، أنا آسفة حقا»

– «لم... يختطفوك؟»

– «كلا، من قال لك هذا؟ لقد أتيت إلى هنا لأشارك في أعظم شيء سيحدث، هنا سنبني دولة الإسلام الحقة، سلام لو أنك تعلم ما يفوتك، فلتعد لرشدك وسأساعدك لتصبح واحدا منا»

خرس سلام وكأن لسانه أصبح ثقيلا وأمسك بجانبه الأيمن، لقد بعت كليتك أيها الأحمق، «سلام...» ثم تنهدت وأضافت: «أظن أن هذا كان كثيرا عليك، أرجو أن تتفهم ما حصل. فلتفكر فيما قلته لك، ولتخبرني بما تود أن تفعله، لكن لن يخرجوك إن بقيت مع القوم النُّصيريين. سأعود لزيارتك بعد يومين»

لم يشعر بالوقت وقد وقفت أمامه من جديد، تمنى لو استطاع رؤية وجهها ثانية أراد أن يتأكد أنها هي نفسها، خطيبته اللطيفة التي كان يعرف. «سلام، هل فكرت فيما قلته لك؟»

– «أريد العودة للديار هل يمكنك على الأقل أن تخرجيني من هنا، هذا رجائي الأخير منك»

وبعد صمت وجيز أطلقت تنهيدة وأجابت: «سأرى ما يمكنني أن أفعله»

وذات ليلة وتحت جنح الظلام فتح أحدهم باب القبو، تبعه سلام بحذر إلى أن صارا في السطح، لم يستطع تحديد ماهية المكان الذي حبس به بدا أشبه بقرية أشباح. أشار عليه الرجل أن يمضي إلى خلف السياج وسيجد شاحنة ستحمله إلى أن يصل إلى الطريق الرئيسية. كان السائق يقف في الانتظار كما قيل له والشاحنة تنفث الدخان لكن رآها كانت تقف عند السياج تختلس النظر.

لا يعلم ما حصل له، تلك الأفكار التي استعمرت رأسه في عتمة الليل لأيام طويلة وجلده الذي لا يزال يحرق من آثار السياط، انطلقت الشاحنة مغادرة ووقف هو أمامها:

– «لماذا عدت؟ أتعلم كم بذلت من الجهد وكم خاطرت لأرتب رحيلك من هنا؟»

– «أريد أن أرى وجهك، أريد أن أتأكد أنها أنت»

عادت خطوة إلى الوراء وردت: «هذا لا يجوز»

فانطلقت من فمه ضحكة عصبية: «لا بأس، أحترم رغبتك هذه، فقط أخبريني بشيء واحد، متى غيرت رأيك حول خطبتنا؟»

– «لقد حدث الأمر بسرعة، الخطأ ليس منك أبدا»

– «حسن... حسن... وهذا الرجل زوجك أفضل مني»

– «سلام أرجوك...»

– «منذ متى تعرفان بعضكما؟» ضمت يديها المغلفتين بقفازين أسودين في توتر، «لما كذبت علي؟»

– «أنا لم أكذب، ظننت أن أبا عدي قد مات حين وافقت على الخطوبة، لكن حين عاد وأخبرني عن قصته وعما رأى... أنت لا تعلم أن هنالك أحداث أعظم تجري. لقد سهرت ليال وأنا

أفكر لم يكن قرارا سهلا أبدا» ليال لم تكن له أدنى فكرة عما يجول في خاطرها

– «لقد خدعتني وخدعت أبويك المسكينين»

– «لم أستطع الاتصال لم يكن هناك وسيلة، لم أقصد خداع أحد»

– «إذن لم بقيت محبوسا في ذلك المكان أياما وأياما»

– «سلام فلتغادر قد يكشفنا أحد»

– «بالبداية شعرت بالذنب وبالسخط لأني لم أستطع...»

– «...سلام أرجوك...»

– «...إنقاذك شعرت بأني مجنون...»

– «...سلام توقف...»

– «...لقد خدعتني وأنا ظننتك امرأة شريفة...»

– «...سلام...»

– «...ليس أنك غادرت دون أن تقولي الحقيقة بل ذهبت لتتزوجي واحدا منهم...»

– «...سلا...»

– «...أيتها الخائنة!» حينها فقط شعر بيديه اللتين أطبقتا على عنقها لكنه استمر كذلك إلى أن أطلقت يدها ذراعه الصلبة وارتخت نحو الأرض ميتة.

لا يزال الليل يخيم على الساحة الخالية هناك، ولا شيء هنا يتنفس غيره. شعر بذراعه تؤلمه، تركت أظافرها خدوشا عليها، كاد أن يزيح عنها غطاء الوجه لكنه تراجع خوفا مما سيرى تحته. وضع يديه على عينيه اللتين تحرقانه، أنفاسه سريعة والدم يضخ بجنون في عروقه. رفرف طائر بالقرب منه ووقف فوق السياج، كان غرابا يحدق فيه بعينيه كاللؤلؤ الأسود تلمعان من دون ضوء في ليلة مظلمة. إن بقي دون حراك سيجدونه ويقتلونه، فليفعلوا، سيقطعون رأسه، فليكن، فنادى صوت داخله: لا تكن أحمقا، فلتقف يا سلام. شد السياج بيديه ليقف، لا يعلم كم تبعد الطريق الرئيسية من هنا، ولا يعلم أين هو. ألقى نظرة إليها، الجو بارد عليها هنا لم يستطع تركها في العراء هكذا، حملها على ظهره وشق طريقه في مسار عجلات الشاحنة.

حين لاحت الشمس في الأفق كان بالكاد يستطيع جر جثتها التي أصبحت ثقيلة. ماذا سيقول لعائلتها، ماذا سيحدث له، كيف سيعيش بعد الآن... كم اشتهى سيجارة في هذا الوقت بالذات. ربما لا يجب أن يخبرهم بشيء، لا أحد عليه أن

يعرف. توقف بقرب من أشجار صفصاف متدلية، قضى نصف النهار يعد حفرة في التربة الطرية، حملها برفق ثم وضعها بالحفرة ورقد إلى جانبها. كانت السماء صافية شديدة الزرقة وفسيحة، أحس براحة وارتخت عضلاته المتوترة.

لقد أحبها بصدق ثم كرهها إلى حد الغثيان والآن ترقد بجانبه جثة هامدة، نعم إنها مجرد جثة الآن يا سلام. رمى التراب عليها ووضع صخرة على رأس القبر. لقد غسل عاره وعار عائلتها وهكذا سيمحو اسمها، إذن لما لا تزال تسكن وجدانه الأسود، لما يرن صوتها إلى الآن...

كفر توما، غرب شمال حلبا أيار X021

هو مجرد إنسان كان طبيعيا ولم يعد كذلك منذ أن تلوثت يداه بذكرى منسية، وانقطع صوت التي نسي اسمها على صوت طقطقة عالية...

طغى طنين حاد على سمع سلام وتراءى له خيالات لأشخاص يجرون فزعين ولهب برتقالي برّاق يسحبه إلى عالم حار وخانق ثم تعالى الصراخ والصياح وسط نيران متشتتة هنا وهناك وأكوام من الدخان تتصاعد منها. في لحظة كان جالسا على

الكرسي يدردش أمامه كؤوس شاي وفي لحظة أخرى كل شيء في القاعة صار في الهواء وذهب النور.

جاءت هزة ثانية فضم ساقيه ووضع يديه على رأسه كوضعية جنين في بطن أمه لتقليل خطر الإصابات أو هذا ما سمعه في برنامج ما. وضع كمه على فمه حتى لا يستنشق الكثير من الدخان، لم يتبق من الحجرة الكثير فقد تسلقت النيران الرفوف وأخذت تلتهم ما حولها بنهم شديد.

لعن الساعة التي وافق فيها على هذا العمل، كان رفقة وسام الذي خرج ليجلب قنينة ماء فيما هو بقي في الداخل يرشف الشاي، الله يعلنك يا وسام ويلعن الشاي تبعك.

اتجه باحثا عن الدرج فقد كان عالقا في الطابق الثالث، خيل إليه أن أحدا يتحرك في إحدى الزوايا، أصاخ السمع خلف حسيس النار. كان هناك صوت سعال شديد قادما من القاعة الداخلية. تخطى الحطام ومن بينها أشلاء بشرية لكنه تماسك متجاهلا الخوف الذي يدب في صدره والصوت الذي يطن في رأسه بأن يسرع في الخروج.

اتجه إلى الرواق قرب رف ساقط، كانت نور متكئة على الحائط عالقة تحت حجر اسمنتي وقد اجتاحتها نوبة ذعر. اقترب منها هامسا: «نور، هذا أنا، سأخرجك فلا تقلقي».

ترقرق الدمع في مقلتيها لرؤيته وانفجرت أساريرها في مزيج من الفرحة والهلع، استجمع قوته ودفع الحجر عنها، أسفله تورمت ساقها المكسورة فربطها بقطعة قماش وحمل المرأة على ظهره، وقبل أن ينهض صاحت مشيرة إلى شعرها: «الشال إنه... يسقط» حتى في موقف كهذا كانت خائفة من أن تظهر شعرها للغرباء، ساعدها على تثبيته قائلا كأنه يتحدث مع طفل: «انظري، لا شعرة ظاهرة»

سارع في البحث عن مخرج، فقد تحول المتجر إلى متاهة من الحطام والدخان الأبيض الذي يعمي البصر. عندما مر من محاذاة أحد الرفوف الذي ليزال واقفا، خُيل إليه أنه سمع أزيزا غريبا، لكن سلام تجاهله ومضى قدما مستجمعا ما بقي لديه من طاقة فلم تكن المرأة التي يحملها على ظهره خفيفة الوزن كما تبدو عليه، وفجأة صاحت نور مطالبة إياه بالرجوع إلى الخلف بسرعة لكن لم يسعفهما الوقت حتى انفجرت علبة أسلاك كهربائية وانطلقت الشرارات الضوئية تتراقص في مرح مع هزة انفجار عنيفة.

ارتمى سلام إلى الحائط وقد شعر بضلوعه وكأنها ستخرج من مكانها إلا أن غريزته جعلته يحمي نورا بذراعيه، كانت تصرخ وازداد عويلها لما أبصرت جثة رجل مجهول. كان مسجى على

الأرض، وقعت عليه ثريا فانغرس الزجاج في أمعائه ولم يترك له مجالا للنجاة.

كون الركام المشتعل جدارا يسد عنهما منفذ الخروج، نظر سلام إلى ألسنة النار حولهما وقد علا أجيجها تلتهم بنهم كل ما تصل إليه وبالقرب منه بعض الأسلاك تصدر أزيزا تهددهم بأن الوقت ليس في صالحهما. إنك أحمق يا سلام، ها أنت ستموت على يد الدواشع، سيكون ضحية إرهاب لا وزن لها، على الأقل لو كان أوروبيا، لأشعلوا عند صورته شمعة ولفوها بطوق من الزهور في ساحة نظيفة أنيقة.

سحب سيجارة مشعلا إياها ونور إلى جانبه تبكي فحولت عيناها الذاويتين عنه تندب حظها وضمت يديها تدعو، أضحت الرؤية أمامهما صعبة والتنفس أصعب، أغمض عينيه مستسلما لمصيره.

فجأة انبثق ظل قادم من شعلة النار بدا له كملاك الموت يقترب نحوهما ثم أعاد تجميع تركيزه الذي يتسرب منه من رائحة الدخان الخانقة فرأى خيال شخص، فصاح بأعلى صوته في رجاء أن يكون عامل إنقاذ. لكن ما لبث أن توضح الخيال شيئا فشيئا.

غمغمت نور: «زهراء... يا مسكينة علقت أيضا في الداخل؟»

لماذا كلما كان قريبا من هذه الفتاة تقع مصيبة ما، فقال: «من أين أتيت؟ هل أصحابك تركوك هنا كخرقة بالية؟»

اعترى الغضب الساخط وجهها الذي تلطخ بسواد الرماد وردت: «إذا أردت أن تخرج فاتبعني، أنا من أجل نور لا غير»

رمى بالسيجارة إلى الشعلة وحمل نورا على ظهره، ساعدتهما على تخطي الركام وقادت الطريق بهما نحو السلالم، لكن لم يتبق الكثير منها فقد سقط عمود محترق على الدرجات الوسطى وصنع فجوة من الجحيم بالأسفل. حامت زهراء حول المكان فقد انقطع السبيل بها أيضا، تمتمت نور وانساب مزيد من الدمع من عينيها: «لا أستطيع أن أموت وترك ابنتي، كيف ستعيش صغيرتي من دون أم، كيف؟»

– «ستخرجين، بإذن الله ستخرجين» صاح سلام بكلمات لا يصدقها، فقد تجلى له الموت ورأى النتيجة سلفا. سيكتفي الإعلام بذكر الأرقام على شريط إخباري في آخر النهار حين تمر جملة مختصرة جافة مكونة من كلمات كقتلى وجرحى في تفجير وقع بمدينتهم ثم تطوى الصفحة وقد يخطئون في العدد فمثلا سبعة وسبعون تشبه كثيرا ثمانية وسبعين، الفرق بينهما واحد لكن هذا الرقم ستكون حياته التي لن تعني شيئا على هذه الأرض الخربة.

أما الصبية لم تتوقف وأخذت تبحث بين الرفوف والمواد المبعثرة على الأرض إلى أن عثرت على حبل سميك وأمرته بأن يتبعها بلهجة مستفزة، واتجهت إلى نافذة وقالت: «سننزل من هنا»

نظر إليها متسائلا إن كانت تمزح، لقد كانا بالطابق الثالث والذي يبعد عشرة أمتار عن الأرض على أقل تقدير، فقال: «تريدينا أن ننتحر أما ماذا؟»

– «وإن بقينا ننتظر فسنموت من استنشاق الدخان، هذا إن لم نحترق أولا»

– «هذه خطة مجنونة»

– «ألديك حل أفضل من هذا»

فصاحت نور في وجهها: «بالله عليكما نحن سنموت وأنتما لا زلتما تصرخان على بعضكما البعض، طلعوني برا، أريد الذهاب إلى ابنتي، آه يا صغيرتي، آه» وارتمت صوب الحافة وانعقد الحبل بين يديها ونظرت إلى زهراء متسائلة: «أمتأكدة من أنه لن ينقطع؟»

أخذته منها مجيبة: «لا تقلقي هذا الحبل سمكه أربعين مليمترا لن ينقطع بسهولة. يمكنك استخدام كم قمصيك لتحمي يديك من خشونة الحبل» وأخذت تربط الخطاف بالحافة مكملة:

«استخدمي يدك اليسرى كدليل ويدك اليمنى للقبض، خذي وقتك، ولا تنسي استخدام عضلات ساقيك قدر ما تستطيعين تحمل من ألم»

تساءل سلام إن كانت الفتاة بكامل قواها العقلية، ترددت نور فجأة عندما ألقت نظرة نحو الأسفل، فقالت زهراء: «سأسبقك، إن تعثرت سأمسك بك»

فأطلق سلام نخيرا ساخرا: «من سيمسك بمن؟» فعبست بوجهه متجاهلة كلامه وردت: «أتريد المساعدة أم لا؟»

فأشار إلى ساق نور: «الحرمة ساقها مكسورة لا تستطيع حتى المشي وتريدين منها النزول على حبل؟ انظري، إذا استطعت النزول، اذهبي واحضري المساعدة ونحن سننتظر هنا»

نظرت زهراء إلى نور فربتت على كتفها: «سلام محق، أتستطيعين فعل هذا؟ سأكون ممتنة لك»

نزلت الصبية بحركات رشيقة وخفة كأن لا وزن لها وقفزت عندما اقتربت من الأرض. مر الوقت عليهما طويلا وازداد سعال نور فمد لها قطعة قماش لتضعها على فمها، نظرت إليه: «شكرا لك على البقاء بجانبي، أعرف أنك قادر على النزول»

أشعل سيجارة ورد: «الأمر ليس كذلك، أفضل الموت على أن أعيش كسيحا»

ولاح الفرج عندما لمحا عاملي إنقاذ ترافقهما الصبية قادمين في اتجاههما. فور خروجها، طلبت نور هاتفا من أحد الشباب المتحلقين حولها متجاهلة جرحها واتصلت بطفلتها، ولم تطمئن حتى سمعت ردها وانجرفت الدموع. عانقتها فدوى تواسيها: «آسفة عزيزتي، أنا آسفة...» وطأطأت برأسها كأنها المذنبة ردت نور: «ليس عليك شيء آنسة فدوى» واحتضنتها أيضا.

وقف سلام في الزاوية وأشعل سيجارة، هؤلاء القتلة الداشعيين، أخذوا الكثير منه ولم يتركوا له مجالا لينسى، ورفع بصره نحو المتجر الجديد الذي لم يتبق منه إلا هيكل اسمنتي محترق.

****

كثيرة الوجوه والأيادي التي ترك عليها الدخان والرماد آثاره وندباته التي تحوم حول زهراء. توافد عناصر الجيش وطوقوا المكان، وتراص بعض المراسلين لنقل الحدث على أجهزة الإعلام، يتدافعون مع المتطوعين ورجال فرقة الإنقاذ المدني الذين استنزفوا طوال سنوات من القصف والتفجيرات وإسعاف الجرحى. تحولت واجهة بيت البركة الأمامية إلى كتلة

متفحمة من الاسمنت، كانت تعي قساوة أبي حمزة لكن لم تتوقع أن يصل بأسلوبه الدموي إلى حد تفجير مبنى خيري، في حين تجاهل عشرات نقاط تفتيش تابعة لجيش التحرير التي تتوزع عبر المدينة.

وضعت فدوى غطاء صوفيا على كتفي الصبية وفتحت قنينة ماء لتغسل وجهها المحموم، وابتسمت لها بعينين حانيتين، شديدتي السواد. هل كل هذا من أجل أن يقتل هذه المرأة؟ كلا لو أراد ذلك لاكتفى برصاصة، أراد أن يرهبها ومن معها وقد أفلح في ذلك وهي الغبية ساعدته في ذلك.

اصطحبتها فدوى نحو سيارة وقالت لأحد العمال: «فلتأخذها مع بقية الشباب واحرص أن يرافقكما عسكري»

فسألتها قبل الصعود: «نور؟ كيف حالها؟»

– «ستكون بخير، لقد تم أخذها إلى المستشفى، فلا تقلقي»

ازدحم المتطوعون بسترهم البنفسجية داخل السيارة وقضوا الطريق في صمت مطبق. شعرت ببعض من حسرتهم، فقد قضوا أياما طوال يخططون ويعملون وكل جهدهم احترق في دقائق معدودة. لكن العتب عليهم أيضا، هذه منطقة قتال وبدل أن يضيع المرء وقته في أعمال خيالية مآلها كقشة بين رمال متحركة، عليه أن يسلح نفسه للمواجهة في أية لحظة. لقد

كانوا محظوظين لأن أغلبهم كان خارج المبنى وقت التفجير، وكذلك هي نجت بأعجوبة.

حين تفكر في الأمر، تستوعب أنها كانت مجرد بيدق لأبي حمزة الملعون باستغلال حاجتها لإنقاذ العم. كتمت غيظها وأحكمت قبضة يدها إلى أن شعرت بأظافرها تنغرس في الجلد. ستذهب إلى الأمير المدعي وستغرس خنجرا في وجهه المتيبس.

بقيت زهراء عند مدخل المكتب بعد وصولهم، فلم يعد لها مصلحة في البقاء معهم، لكن اكتشفت أن هاتفها ضاع في الساحة في خضم فوضى التفجير. فكرت في الصعود لتقترض واحدا للاتصال بحسين ووقفت عند المصعد، فاقترب منها الشاب الأشقر وضغط الزر بدلا منها قائلا: «الحقيقة ما حصل قد تجاوز توقعاتي» لم تميز إن كان يحدثها هي، كانت ملابسه نظيفة ومرتبة رغم كل ما حصل في حين أصبحت ملابسها كالأسمال البالية.

فتح باب المصعد فاستقله أولا والتفت إليها قائلا: «لقد كنت أود أن نقوم بالأمر بطريقة أخرى، لكنك خطر كبير حقا» حينها فقط لاحظت العسكريين القادمين نحوها من الاتجاهين وأدركت بعد فوات الأوان ما يقصده، كاد أن يغلق الباب فلمست إحدى جزئيه ليفتح من جديد متمتمة: «أنت... أيها

اللقيط» نظر إليها بعينيه الرماديتين الكئيبتين باستهزاء وأزاح يدها عن الباب.

لم يمهلها الوقت للهرب ولم يكن في حوزتها سلاح، أسقطها العسكري على الأرض وقيدها الثاني واجتمع حشد فضولي ليرى ما يجري وهي تشحن كالخروف نحو السيارة العسكرية.

****

(3)

كفر توما، غرب شمال حلبا أيار X021

مسح الرقيب المحققُ العرقَ عن رقبته الغليظة المتهدلة وقد احمر جلده الأبيض المبرقع من ارتفاع درجة الحرارة في غرفة التحقيق صغيرة الحجم. كانت أشبه بغرف مستشفى قديم، بلاط جدار أبيض فقد لمعانه لبنية الأرطان العالقة به وأرضية باردة عليها آثار دماء قديمة، أثاثها طاولة حديدية بالوسط.

ظل المحقق يطرح أسئلته ويعيدها، يصرخ ويشتم ثم يهدأ ليبدأ ثانية، أما الصبية فقد امتنعت عن كتابة أية إفادة أو اعتراف، فكل معلومة مهما بدت صغيرة أو تافهة ستكون هامة بالنسبة لهم. كانت أكثر الأسئلة تدور عن أبي حمزة الأسدي، عن مكان مخبئه وعما يخطط له. قد لا تعرف كل شيء كما أنها تمقت ذلك الأمير الملعون لكنها لم تنطق بكلمة واحدة فلن تكون واشية أبدا. نفذ صبر الرجل السمين وصار يصرخ ويتوعد، فقد كانت ليلة طويلة في الحجز.

فتح الحارس الباب لضابط عسكري، رأسه أصلع لامع، تزخرفت بذلته بشارات عديدة تدل على علو منصبه. نهض الرقيب مفسحا المكان لقائده بعدما ألقى التحية العسكرية والقلق باد على وجهه. تفحص القائد الملاحظات فلوى شفتيه استياء ثم وضع ذراعه المفتولة على الطاولة وحدق في الصبية بتمعن ثم قال: «تهم كبيرة لفتاة صغيرة مثلك. وبالرغم من ذلك لم يحصل معاوننا العزيز حتى على اعتراف واحد. أظنه كان لطيفا معك إلى حد كبير» كانت له نبرة صوت رقيقة لا تناسب ضخامة جسده: «لنختصر الأمور ولنتعامل بأسلوب متحضر، ستجيبين عن الأسئلة من دون لف أو دوران، عندها قد نأخذ بعين الاعتبار تخفيف العقوبات» ظلت على صمتها وعيناها كانتا تنظران إليه بتحد.

قام من مقعده قائلا: «كبداية، فلتخبريني ما الذي كنت تخططين له بتجوالك بالمدينة؟» وحين لم يتحر جوابا فاجأها بصفعة فاترة إلى وجهها حتى ارتمت من الكرسي. أحست بطعم الدم المعدني في فمها وطنين في أذنها ثم قال للرقيب: «ارفعها» فوضعها على الكرسي من جديد: «يمكننا قضاء الوقت بطوله نعيد نفس الأسئلة ويمكنك البقاء صامتة لكنك لن تظلي طويلا هكذا فأغلبكم يبدأ بالصراخ بعد صفعتين أو ثلاث، ثم البكاء والنحيب وفي الأخير يثرثرون كامرأة في السوق، عن أشياء مفيدة وأشياء غير مفيدة»

أعاد السؤال فلم تجب ثانية ثم صفعها. تماسكت هذه المرة في مكانها وظلت تحدق متحدية إياه. أخذ يجول في الغرفة لمدة والآخر يراقب بصمت ثم وقف خلفها وأطبق على كتفيها بقوة هامسا في أذنها حتى أحست بأنفاسه على رقبتها: «إننا نعرف من أنت، أيها الخنثى علي» فجفلت ملامحها للحظة، كيف عرف هذا؟ حاولت استعادة هدوئها أما هو فأكمل: «تظنين نفسك ذكية، يبدو أنكم أيها الفراخ أكثر عنادا من قادتكم، لما لا تكونين حكيمة كقائدك المدعو أبي يزيد وتتوسلي لنجاتك» كتمت الصبية غيظها فهي تعلم أن أبا يزيد لن يتوسل لأشخاص كهؤلاء أبدا.

همس ولازال ممسكا بكتفيها: «كل ما نريده اعتراف مكتوب، فيه ستعترفين؛ أولا على انتمائك لداشع والعمليات الإرهابية التي نفذتها كعلي، ثانيا بضلوعك بتفجير 15 أيار، ثالثا بتنفيذك لمخطط تفجير ملكية تابعة لمنظمة خيرية» ثم أضاف لكن ناطقا كل كلمة على حدا هذه المرة: «وأخيرا، المخطط الفاجر التالي الذي يسعى إليه خنثانا علي يا ترى؟»

– «قتلكم واحدا تلو الآخر شر قتلة» تكلمت أخيرا. نظر المحقق الذي يقف أمامها إلى وجه قائده وعرفت من تعابيره أن إجابتها لم تعجب الرجل الضخم.

قبض شعرها بشدة وأعاد رأسها إلى الخلف لتقابل عيناها عينيه ثم قال: «تظنين نفسك قوية أيتها الداشعية الصغيرة» ثم ضرب بجبينها بكل قوته إلى حافة الطاولة وسال الدم على سطحها. ارتجفت يداها وهي تمسك برأسها الذي كاد ينشق من الألم وقد تكورت الخصلات الشعثاء بالدم على وجهها. تضببت الرؤية للحظات، أثناءها دخل شخص ثالث جعلها تبصم بقوة على ورقة لا تملك فكرة عن محتواها.

جلس القائد العسكري على مقعد حديدي في الزاوية واضعا ساقا على ساق ينتظر أن تستجمع تركيزها. وضع الرجل الثالث سطل ماء وقيدها على كرسيها ثم أماله بخمس وأربعين درجة، قال العسكري: «للأسف لا نملك وقتا لننخرط في دردشة خفيفة ليؤلف الواحد منا الآخر» واستقام في جلسته مكملا: «حسن بعدما اعترفت بجرائمك على ورقة الاعتراف، لندخل في الأمور الجادة، ما هو الهدف التالي لأبي حمزة؟»

وعندما لم ترد، أعطى الأمر لمساعديه، خنق الأول وجهها بمنشفة ثقيلة وصب الآخر الماء مغرقا الصبية وقدماها تتراقصان في الفراغ متوسلتين للهواء لمدة امتدت دهرا بالنسبة لها. وأعاد السؤال بعد أن أبعد خرقة القماش وانتظر إلى أن التقطت أنفاسها شاهقة لكنها لم تتفوه بشيء فاستمر في المحاولة عدة مرات.

حدجته بحقد وغضب، كم رغبت في تمزيق كل واحد منهم، ستحرق أرواحهم في نار الجحيم السوداء إلى أن تتفحم أجسادهم القذرة، ابتسم القائد ساخرا قائلا: «أعتقد أن هذا الأسلوب لطيف عليك، ربما سنلتجئ إلى أسلوب يناسب خنثى مثلك، أظن المناكير الفاشي سيفي بالغرض» ولاعب أصابعه وأكمل بصوته الرقيق المثير للأعصاب: «ستُثبّت الأصابع العشرة لكل من يديك وقدميك ثم تنغرس في نفس الوقت آلتان تغرز إبرا تحت الأظافر تخلعها ببطء وروية، هل لديك فكرة عن الألم الرهيب عند اقتلاع كل ظفر عن اللحم؟»

أجابت مسايرة إياه: «يبدو هذا مشوقا، طريقة أنيقة تناسب أصابعك الأنثوية»

أطلق ضحكة عالية وعلق: «وخفيفة الظل أيضا» ونظر لمساعده ليغرقها ثانية، كانت تقاوم ولكن كانت كمقاومة قطة صغيرة بين فكي أسد. «تعقيد الأمور لن يجلب نفعا، فلتنطقي ما دمت لطيفا»

التفتت إليه، ستقتله حتما، يوما ما ستقتله، فأعطى الإشارة وهذه المرة حين قام المساعد بخفض رأسه ليثبت المنشفة على وجهها ارتمت عليه بكل ما بقي لها من قوتها وعضت أذنه ولم تتركه حتى انهال الثاني بعصاه بضربات أفقدتها الوعي.

****

خلف جذوع شجرة تين ميتة، الشجرة الوحيدة في المنطقة الصناعية الخالية، توارى ظل قرب الحشائش العطشة التي تلفها، يتموج شكله تحت ضوء مصباح الشارع المرتعش، كان لأبي منذر وهو يقبض على حزام بندقيته وقد انسلت تحت قبعته الكركية من كل جهة أجمة من الشعر الشائب، بعد أن نظر يمينا وشمالا دق على باب السيارة لينبه سامي أن الوقت حان.

ترجل وتبع الحارس العجوز الذي وثق بكلمته، كان أمثاله نادرون فقد اكتفى بقليل من السلع الأساسية من أجل عائلته مقابل أن يدخله إلى المصنع القديم الذي يحرسه عناصر من جيش التحرير. ارتفع داخل المكان صهريج أسود كبير كجني حارس على المخازن المغلقة، واهترأت الآلات في مواقعها، على بكاراتها علقت خيوط من النسيج والحديد الصدئ. دخلا إلى حجرة صغيرة حيث بنيت منضدة من الجبس بعيدا عن الباب وفتحة تهوية في السقف أغلقت بقضبان حديدية مزدوجة. فتش الحارس سامي وأخذ منه مسدسه وهاتفه وأغلق الباب عليه بالمفتاح، ربما هو الذي وثق به أكثر من اللازم،

وليشعر بالأمان تحسس سامي الساعة على معصمه المزودة بخدمة الاتصال السريع.

أدخل الحارس السجين الذي ارتدى بذلة برتقالية وكاد أن يربط ما تبقى من السلسلة في الحلقة الحديدية المثبتة على المنضدة لكن عندما عرف أبو يزيد من زائره قال: «لا داعي يا أبا منذر، لقد انتهت الزيارة بالفعل» لم يعرف العجوز ماذا يصنع غير أن يفتح الباب من جديد، فنطق سامي بالاسم الذي سيرجح كفته: «زهراء نيسان»

رفع أبو يزيد بصره ناحيته وقد حاز على انتباهه الكامل أخيرا وعقد حاجبيه: «أنَّى لك بمعرفتها؟»

رسم سامي ابتسامة شاحبة: «ما رأيك أن نكمل حديثنا السابق أولا؟»

جلس الفتى والرجل الملتحي متقابلين يفصل بينهما عرض المنضدة وبقي أبو منذر واقفا قبالة الباب، حيث يمكن أن يسمع حديثهما، الأمر الذي لم يعجب سامي، فقال أبو يزيد: «يمكنك أن تتكلم على راحتك يا فتى» وحدق إليه مباشرة بعينيه الزيتونيتين في محاولة لسبر أغوار محدثه: «فلتنطق بكل ما لديك من دون ألاعيب»

بيد أن سامي تمعن في الجدران قائلا: «أعتقد أن هذا المكان أفضل بكثير من سابقه، على الأقل سيخفف من وطأة فشل عملية الفرار السابقة. ربما سترغب في بطاقة الخروج من السجن هذه المرة، فعناصرك لم يفلحوا في إكمال مهمتهم»

لكن أبا يزيد ادعى عدم معرفته ورد: «ليس لدي وقت لأضيعه معك، فلا تعبث، كيف تعرف اسم السيدة زهراء؟»

– «لتحري الدقة لم تكن زهراء نيسان نفسها بل المدعية التي أخذت اسمها، تعرف بوسطكم بعلي» اتسعت عينا السجين الملتحي أما سامي: «كيف أصفها؟ تصرفاتها الطائشة قد أوقعتها في ورطة كبيرة، وبما أنها من معارفك أتيت بنية حسنة لأمد يد المساعدة» هرش أبو يزيد مقدمة شعره وقد طغى عليه التوتر أما هو اتكأ على الكرسي بأريحية عاقدا يديه على صدره مكملا: «مقابل بضعة معلومات لا غير»

– «أين هي الآن؟»

– «حيث يجب أن تكون، في زنزانة ما»

اجتاحت الصدمة وجه السجين غير مصدق، قدم سامي صورة للحظة القبض عليها التي التقطت بالكاميرا الأمنية أمام مدخل مكتب المنظمة، وأكمل: «أظنها لا تزال في إحدى المراكز الأمنية الخاصة بشفيق» وادعى القلق وزم شفتيه: «لا، قد

تكون مجرد امرأة لكنها علي المجاهد الشبح ذي السمعة السيئة، لابد أن يزج بها في قبو سري. لا أستطيع تخيل ما سيفعله بها، سيعذبها... سيجلدها... سيقلع أظافرها... وربما لن تبق فتاة صغيرة بعد الآن إن فهمت ما أعني»

– «أيها الوغد!!» قفز كالوحش الهائج وكاد أن ينقض عليه بقبضتيه لولا أن السلسلة عثّرته وأعادته إلى الخلف، فانتفض أبو منذر من مكانه ليوقفه.

امتن سامي لوجود الحلقة الحديدية وقال رافعا كفيه: «لا تقلق، لدي حل سيخرج صغيرتك من ورطتها، فلما لا تجلس ونتفاهم بطريقة متحضرة»

اعتذر أبو يزيد من الحارس وطلب منه أن يمهله بعض الوقت. ساد الصمت لفترة أطبق فيها السجين مفكرا، اعتمل غضب شديد في عينيه وقد فارقه هدوءه الذي لازمه في أول زيارة.

اقترب سامي منه بحذر قائلا: «كما ذكرت يمكنني مد يد المساعدة، وكما أعرف مكان احتجازك أعرف أين هي الآن، بطاقة الخروج لا تزال على الطاولة، قد لا ترغب بها لظروف خاصة بك، وأنا أتفهم خصوصيتك. لكن امرأة في مقتبل العمر قد تكون فرصة نجاتها من مصير مروع لا يمكن تخيله»

ضغط أبو يزيد على أسنانه ورد: «لو مسها أي سوء سأبحث عنكم واحدا تلو الآخر وسأمحوكم عن بكرة أبيكم بعدما أذيقكم سوء العذاب» لم تضف كلماته شيئا سوى أن الفتاة تعني له الكثير من مجرد ربيبته.

أجاب سامي بلطف: «لا داعي للتهديدات فأنا في صفك سيد إياد»

– «لنفترض أنك تستطيع إخراجها، فما الذي تريده في المقابل؟»

– «كل ما يتعلق بالسلاح الشبح، من مصنّعه إلى طريقة استخدامه، وبالتأكيد السلاح نفسه»

أطلق السجين ضحكة عصبية: «إنك لا تعرف شيئا البتة، لو عرفت لما وددت الحصول عليه» ودنا منه شابكا أصابعه إلى الأمام: «كيف أثق بأنك حقا ستساعدها أو أنك حتى قادر على ذلك؟»

تبسم سامي: «سيضطر شفيق لمبادلتها ببضاعة لها نفس القيمة عما قريب، بل أنه سيسعى على الحفاظ على سلامتها» من أجل الحفاظ على حياته المهنية، فقد كان يملك معلومات ستقضي عليه إن عرضت على الملأ.

حدجه بنظرة أشد ارتيابا من قبل: «لأي جهة تعمل يا فتى؟»

– «هذا لن يشكل فرقا نظرا لموقفك، ما يهمك هو أنه يمكنك إنقاذ فتاتك»

مسح لحيته الكثيفة مفكرا لبعض الوقت ثم قال: «إليك الصفقة، ستخرجها سالمة معافاة وستحصل على عينة من السلاح»

لم تكن صفقة سيئة لسامي فإن أرسل عينة من السلاح لمعلمه فهذا سيرفع من نقاطه كثيرا، لكن لن ينسحب والكرة لا زالت في ملعبه فقال: «لا صفقة من دون المعلومات الأساسية أولا»

هز السجين رأسه بهدوء نافيا ودق بأصبعه على الطاولة: «هكذا سيتم الأمر أيها الفتى، سأخبرك إلى أين تذهب وتنتظر، عندما يتأكد رسولي من أنها في بر الأمان، سيسلم لك العينة في حضورها. وستنتهي لعبتك»

– «إنك لا تفهم فأنا من أضع الشروط...»

فقاطعه: «أتظن أني غبيا؟ من الواضح أنك لا تعرف الكثير عن السلاح، العينة أكثر من كافية»

– «اعذر وقاحتي فأنا في حاجة للمزيد وأعدك أنها ستخرج في أقرب وقت ممكن. ذكر الأسماء ضروري لعقد الصفقة»

تنشق محاولا كتم غيظه ثم أجاب مرغما: «بالنسبة للأسماء فلا أستطيع»

– «كنت أظن أن الفتاة تهمك كثيرا أم أنني مخطئ؟ فكما هو معروف، العقيد شفيق تمرس في فنون التعذيب في سجون النظام» وتنهد آسفا: «كل دقيقة في الحجز ستكون دهرا من العذاب بالنسبة لفتاة»

تبادلا نظرات صامتة متوترة، لم يتزحزح سامي عن موقفه وقد قرأ في ملامح أبي يزيد صراعا داخليا مريرا فكور قبضته وقال: «سأعطيك الاسم الذي تريده، اسم مبتكره»

– «أحتاج إلى عربون صداقة قبل الشروع في العمل. فلما لا تذكر الاسم الآن وننتهي»

– «لا تدفع حظك كثيرا، سيكون مع العينة» واقترض أبو يزيد من الحارس ورقة وقلما ومررهما لسامي قائلا: «دون رقم هاتفك، وسيتصل بك رسولي»

– «لنلخص الأمر، رسولك سيسلم العينة أولا، ستكون الفتاة في عهدتي ريثما يتم إكمال الصفقة» لاعب سامي القلم في يده: «وسيكون التسليم في المكان الذي أحدده أنا»

قال أبو يزيد مستسلما: «كما تشاء» لكن عيناه كانت تضمران أمرا ما. نهض سامي من مكانه وقبل أن يغادر الحجرة قال: «أرجو أن تفي بوعدك فإن لم يكن فلن أضمن لك سلامتها»

تجلت ابتسامة عابثة على محيا أبي يزيد: «تلك الفتاة ليست كما تعتقد، يا ليتك استمعت لنصيحتي في ذلك اليوم»

كانت جملته نصيحة مكررة فهو يعي خطورة الفتاة لذلك كان لا يفكر في الاشتباك بها أو بأي عنصر آخر يشبهها بعد الآن، فما إن يستلم العينة والاسم، سيختفي. كانت خطته تسير على ما يرام إلى حد الآن؛ اقتضت الخطوة الأولى بالقبض على الفتاة بالاستعانة بطرف خارجي، فسامي يعمل وحيدا ولن يستطيع التعامل معها لوحده ولتجنب الخطر أقحم العسكر الذي يفترس كل من اشتبه به بشكله أو فعله أو حتى ملابسه بأنه إرهابي. ثانيا استخدام بطاقة التفاوض لإجبار أبي يزيد لعقد صفقة معه. ثالثا، تسليم الفتاة من طرف جيش التحرير بشروطه هو بحيث لن يطلق سراحها إلا بعدما يحصل على ما يريد.

في صباح اليوم التالي، كانت المكاتب في مبنى المنظمة شبه خالية، فأغلب العاملين أخلوا المكان ومنهم من عاد إلى تركيشا خوفا من الاستهداف. كان سامي من القلائل الذين قدموا للعمل وأيضا فدوى، جلست وحيدة بمكتبها وفي أجوائه ترنم أغنية من القرن الماضي تنبع من كاسيت مسجلة أثري، كانت منشغلة تتفحص أوراق مذكرة قديمة وأمامها فنجان قهوة.

أحضر سامي حاسوبها واستأذن للدخول، قائلا: «لقد أنهيت الإعدادات، وأرجو ألا تحمّلي كل ما يبعث لك في الرسائل الالكترونية»

أطلقت ضحكة متعبة وردت: «آسفة فأنا أمية فيما يتعلق بالحواسيب» وأغلقت المذكرة مكملة: «والدتك اتصلت بي اليوم، إنها خائفة عليك كثيرا. تود منك أن ترجع إلى لابنون وأنا أيضا أظنها فكرة جيدة»

– «أكره أن أترك الأشياء معلقة لذا سأرجع عندما أكمل مهمتي» والتي شارفت على نهايتها

– «إذن عدني بأن تأخذ حذرك» أمال برأسه موافقا وانهمك في تركيب الخيوط لتشغيل الحاسوب.

دخل مياس وألقى التحية في عجل وطلبها للتحدث على انفراد فاتجها نحو الرواق. خمن سامي موضوع حديثهما فقد توقفت مشاريع المنظمة المقررة لهذا العام كما يجب توفير التأمينات للمتطوعين المتضررين. وقع في التفجير خمس ضحايا اعتبروا شهداء وأربعة وعشرون جريحا. انهالت آلاف التعازي من وسائل التواصل الاجتماعي، قد تكون المنظمة تضررت ماديا في مواردها لكنها كسبت شعبية أكبر وتعاطفا لا مثيل له من قبل الناس في أنحاء العالم.

أزاح سامي الوحدة المركزية قليلا إلى الزاوية فأوقع صفحات المذكرة من على سطح المكتب، التقطها وأعاد تركيبها في مكانها. كانت مملوءة بمصفوفات شعرية، فقد نُشرت لفدوى عدة دواوين لها في أوروبا ترجمت إلى اللغتين الفرنسية والانجليزية، لم يكن سامي من محبي الأدب لكن لإشباع فضوله قرأ بعضا من منشوراتها من قبل التي تدور عن الوطن والحرية، أما هذه فقد دونت قديما وتتحدث عن عذاب الحب. وبينما هو يقلب الصفحات انتبه لوجود صورة، كانت لفدوى وهي شابة إلى جانبها رجل يبدوان مقربين من بعضهما. يعود تاريخها الذي سُجل على الحافة إلى العام الأول من الألفية الجديدة.

لكن سامي عاد يتمعن في ملامح الرجل والدهشة تتصاعد في أعماقه، لقد كان أبا يزيد نفسه إلا أنه أصغر بعشرين سنة في الصورة. يا للسخرية، هل يعقل أن القديسة وأيقونة الثورة حبيبة قديمة لأكثر الإرهابيين كرها في البلاد؟ لكنها معلومة أثارت فضول سامي أكثر، وقد انتابه شك بأن هناك حلقة ناقصة في بحثه لا يعيها بعد.

****

قطرة تتلوها قطرة، تهطل من الأنبوب المكسور المكسو بالعفن الأخضر فتتمايل نحو الأسفل كبالون بقعر بني اللون ثم تتدحرج على خد الصبية. كان جفناها ثقيلين، ملقاة على الأرضية الدبقة وصدرها يأز بالألم كأن سكينا اخترقه طولا وعرضا. كثيرة تلك الأرواح التي تنوح في أرجاء المكان... التي تبكي بين الظلال... 'عندك يا سيدتي أبكي وأنوح' تعالت ترانيم الأم زهراء بصوتها المبحوح من كثرة الدعاء، باعثة بالجسم قشعريرة الخوف والفناء. كان شبحها قابعا في الركن، تعاتبها بعينيها الدامعتين على الدوام، «لم أقصد يا أماه... لم أقصد» تمتمت الصبية بصوت واهن، وانتفضت وقد أغلقت أذنيها محدثة نفسها: «لا تذكريها ثانية أيتها الغبية، لا تفعلي!»

أفاق سجين كان معلقا إلى السقف من يديه على وقع صوتها في الزنزانة المقابلة، تركوه ينزف على مهل وخيوط رفيعة من الدم تسيل من جروح سبّبها مشرط. تلاشى ضوء ملكته الضعيفة والتهمتها الظلال... لقد باح المغفل لهم بكل ما يعرفه ورموا به ليتعفن. لن تنطق بشيء مهما فعلوا بها. ضمت ساقيها بين ذراعيها، متجاهلة أنينه والشبح بالإسكيم الرهباني فما هو إلا أوهام فالأم زهراء قضت نحبها بيدها لكن موتها أضحى ظلمة تخنقها... تُغرقها ببطء. 'أنت السبب... موتي...' لم تقصد، كان خطأ غير مقصود.

وصلت مسامعها وقع أقدام الحراس التي تعلو أكثر وأكثر. عند دخولهم الزنازين حام ثمانية منهم حول السجين المعلق. كان الرجل الستيني ضعيف البنية ونحيل الجسم، لكن كبر عمره لم يشفع له فقد انهالوا عليه بالهراوات والعصي والأسلاك الكهربائية، وهو يصيح باكيا بينما تزاحم الضربات والضحكات المجلجلة رجاءه الذليل. اكتفى تاسعهم بمراقبة أعوانه إلى أن أيقن أن السجين لم يعد نافعا لشيء بعد إن اعترف لهم فجازاه بطلقة رصاص في الرأس ورفع ناظره إليها مبتسما، إعدام السجين أمامها كان رسالة لبث الخوف في قلبها، وتركوا جثته تترنح في الهواء. كان روحا عاشت حياة ضحلة، مجرد كائن تائه على أرض غريبة.

انزوت إلى الركن وحافظت على رباطة جأشها إلى أن غادروا. لن تسمح للخوف أن يجتاحها فعندها ستحل نهايتها لكن كلما مر الوقت ضاق المكان برائحة جثة السجين الدامية. وارت رأسها بين ركبتيها المضمومتين إلى أن تسلل شعاع من ثقب ضيق بخيل بضوئه الصباحي وانعكس على الجدار الإسمنتي، انسل معه طائر شارد إلى داخل الزنزانة، كان ينضح بالحياة وملَكَته تتوهج في عتمة المكان. التفت يمنة ويسارا ببلاهة باحثا عما يسد رمقه وبعد أن يئس فرد جناحيه وحلق بعيدا من حيث أتى.

أغمضت عينيها ونفضت حزنها عنها، هذا ليس وقتا مناسبا لتنهار. اجتاحت مسامعها صوت الشلال وحبيبات مياهه الشفافة، تراءت لها تتراقص بين خطوط الزمن السوداء، شعرت ببرودتها واستعادت هدوءها. كان العم أبو يزيد إلى جانبها كلما هاجمتها الكوابيس، يربت على رأسها إلى أن تهدأ... معه لم تشعر يوما بأنها يتيمة، معه لم تكن منبوذة ولا وحيدة، معه لم تشعر بالضعف، كان قوتها وملجأها... كم اشتاقت إليه. وعدها ذات يوم أنه لن يتركها وحيدة، وها هي في عمق زنزانة، كل ما ترغبه به هو رؤيته والاعتذار، فقد خيبت ظنه مرات ومرات، آه يا لي من غبية، أو ربما كما أخبرتها الأم زهراء بأنها فتاة طائشة لن تنجو في هذا العالم.

كان عليها أن تكون أكثر حذرا وأن تحكّم عقلها، فلما سيهتم أبو حمزة بمجموعة من العوام، بالتأكيد ليس محبة فيهم، وخطؤها الأكبر أنها أهملت وجود مخبر بين صفوفهم، ذلك الأشقر اللعين، سأقتله، همست بذلك فترددت الكلمة بين الجدران. سيكون أول فريسة تتخلص منها، سأقتله بالتأكيد.

سمعت خطوات الحراس عائدين تعلن أن دورها قد حان، ستتشبث بصمتها مهما حصل، وعضت أصابعها في توتر يزيد كلما اقتربوا أكثر. ارتفع صرير البكرات الصدئة لباب الزنزانة كنعيق يصم الآذان وتقدم ضابط وسحبها بعنف أمامه

بعد أن أحكم الأصفاد على يديها بقوة حتى ترك أثرا عليها. ومضى يجرها من بين الزنازين حيث تراص فيها مزيد من السجناء كحيوانات في أقفاص صغيرة.

تجاوزوا ساحة مفتوحة في اتجاه بناية أخرى، ابتسمت لها السماء برحابة ودلل الهواء النقي جوارحها باعثا الحياة فيها، أرادت أن تتمتع بهذه الخطوات القليلة خارج الزنزانة العفنة. لكن حجرة الاستجواب كانت في مرمى البصر، توقفت عن المسير وأوصالها تستنجد أن تهرب، أن تنادي بأعلى صوتها على العم وغمغمت كطفلة صغيرة: «عمو...»

أجبرها الضابط على التقدم، استشعرت الألم الجسدي الغدار من مسام جلدها، من أحشائها الجبانة، وكل خلية من جسدها صرخت رغم كل ما اصطنعته من شجاعة، وما أن أصبح باب الحجرة مواجها لهما حتى تجاوزه الضابط نحو السلالم الملتوية، وهما يصعدان، اصطك المعدن الذي صكت منها الدرجات الضيقة التي أدت بهما إلى أحد المكاتب المتفرقة في الممر.

كان القائد الأصلع يدق بأصابعه في صبر نافذ على الطاولة الزجاجية أمامه، فكان أول من لمحته وفي الجهة المقابلة جلس شخصان أحدهما ببذلة أنيقة والثاني توارى خلف الباب. لم تفهم ما الذي تغير فالمكتب لم يكن حجرة استجواب، حدق

إليها الرقيب الذي قضمت أذنه بحقد ممسكا برأس الهراوة المعلقة على حزامه ووقف قرب سيده متأهبا.

قال القائد لصاحب البذلة: «ها هي ذي أمامك لكن إذا أمهلتماني مزيدا من الوقت فسأجعلها تنطق بكل شيء حتى مخبأ رفاقها أولاد الكلاب»

رد عليه: «الوقت ليس في صالحنا وحياة موظفينا تهمنا كثيرا» فاحت منه رائحة عطر خانقة والتمعت بذلته من القماش الأزرق البحري حريري الملمس في ضوء النهار. خلف ابتسامته أخفى تقززه منها حين نظر إليها وقد انعكست صورتها على زجاج النافذة، كدمات على الوجه وقد تقرح جرحها وثياب مخضبة بالدماء والعفن. أردف وقد انفلتت من بين كلماته ميلة لابنونية: «للضرورة أحكامها ونشكرك على تفهمك سادة اللواء»

لاعب العسكري أصابعه ووجه الحديث إليها: «فلتفهمي شيئا واحدا أيتها الداشعية الصغيرة، ألاعيبك أنت ورفاقك عديمي الشرف لن تفلح أبدا»

اصطنعت الجرأة وردت ساخرة: «أوه لم أكن أعرف أن وغدا مثلك يعرف ما هو الشرف أساسا» انقض الرقيب وأمسكها من عنقها في يأس قاطعا أنفاسها بينما تأملها قائده ساخطا، حاول صاحب البذلة التدخل لكن لم يستطع النطق بشيء حتى قالت

الضيفة التي لم تنتبه لها زهراء: «توقف، على هذا المنوال ستقتلها»

أعطى شفيق لمعاونه أمرا بالابتعاد وقال: «المعذرة آنسة فدوى على هذا المشهد الذي لا يرقى لمستواك» تأرجحت نبرته بين العجرفة والسخرية.

جلست الناشطة على طرف الأريكة الوثيرة بشكل خجول وقد ارتبكت ملامحها المتألمة، أجابته بلهجة صارمة بدورها: «لا شيء يبرر هذه التصرفات اللاإنسانية، انظر إليها إنها مجرد طفلة»

أطلق ضحكة كنخير الثور وقال: «طفلة؟ أنت بالفعل تجهلين الكثير بالنسبة لإعلامية، إنها عنصر متدرب جيدا تربى على يد الإرهابيين، إنها وحش على هيئة بشرية» وأشار إلى الصبية: «التنظيم منتشر في أراضينا كالسرطان ويجب استئصاله من الجذور إلى الفروع»

– «هذا لا يعني أن ننس عدونا الأول» ردت فدوى وقد أصابت حشرجة صوتها، وظهر خط رفيع على عنقها من أثر جرح قديم. كان أشد وضوحا لانخفاض ياقة قميصها ذي اللون الترابي: «إذا رمينا بمبادئنا عرض الحائط، إذا مارسنا

التعذيب، فلن نكون أفضل من التنظيم والأهم من النظام المتوحش الذي فتح المجال لأمثاله بالعبث في أرضنا»

قاطعهما صاحب البذلة وتكلم كأنه يفض شجارا بين طفلين: «لنأخذ الأمور بروية، الآنسة فدوى لديها وجهة نظر محقة، فإن فقدنا السجينة فلن نستطيع ضمان سلامة موظفينا المختطفين. أيضا، السيد شفيق يقوم باللازم فنحن في حالة حرب. لذا دعونا نترك الفروقات البسيطة جانبا»

قالت فدوى: «إنها ليس مجرد فروقات» وتنهدت مكملة: «لكن الأولوية سلامة موظفينا المختطَفين»

فهمت الصبية ما يحدث، إنهم مضطرين لإبقائها حية فأحد رفاقها قام بعملية اختطاف لإجبارهم على إطلاق سراحها. لن يقوم بفعل كهذا من أجلها سوى حسين، وربما ساعده أبو سلمان إن رأى فائدة في ذلك. أُعيدت إلى حجرة الاستجواب في انتظار قرارهم. وبعد فترة من الزمن استأذنت فدوى للدخول مع بعض الثياب وعدة إسعافات أولية. استغربت الصبية من سلوكها حينما قدمت هذه الأشياء لها وقد أُجبر الحارسين على السماح لها بالدخول.

قالت بصوت ناعم كالقبلة: «لم أعثر سوى على هذه الثياب التي يمكن أن تناسب مقاسك»

ودنت محاولة فحص جرح جبينها فتراجعت الصبية إلى الخلف، أربكها لطفها وربما وراءه خطة خفية فردت عليها بحدة: «سأهتم بذلك بنفسي، إني لست في حاجة لشفقتك»

– «آسفة. لا تعتبري مساعدتي شفقة وإنما واجب» كانت ترمقها بنظرات مليئة بالأسى فأشاحت الصبية وجهها عنها، «أتمنى أن يلقى زملائي معاملة أفضل من هذه بكثير»

سألتها الصبية خافضة رأسها: «أي منهم اختطف؟»

– «مياس، أظنك تعرفينه. وشخصين آخرين، كانا مجرد عاملين مؤقتين»

– «إن سارت الأمور كما يجب فسيكونون بخير» تعرف حسين جيدا ولن يؤذي أحدا منهم من دون سبب.

– «إذن سأثق بك» أحاطت بها ملَكة ناعمة بيضاء كالثلج، لا يمكن لشخص بملَكة كهذه أن يكون سيئا.

وقبل المغادرة، سمح الحارس لها باستخدام الحمام وبقي قرب الباب، على الأقل امتلك الكياسة الكافية فلم يرافقها إلى الداخل. طبطبت جروحها ثم غسلت شعرها وجسمها من الوسخ غير أن الملابس لم تكن مريحة، سروال جينز ضيق وقميص أخضر رسم عليه ورود صغيرة قصير الأكمام كما أنه ضيق من جهة الصدر. أنزلت خصلات شعرها إلى الأسفل لتخفي

الكدمة على جبينها واستعادت حماستها. أتتها فرصة جديدة، فور عودتها ستنتقم ممن كان السبب في شقائها أبو حمزة والأشقر اللقيط، والأهم من ذلك ستبحث عن طريقة أخرى لإنقاذ العم.

****

وقف سامي قرب النافذة، مسندا ظهره على الجدار عاقدا يديه، بالقرب منه جلس سلام الذي لم يتوقف عن التذمر وقال مكررا كلامه: «البنت كانت مسلحة وتنشر دعواها علنا، ولم تأبهوا لتحذيراتي» حضر بعدما سمع عما حصل لمياس، لم يأت بشيء مفيد سوى ثرثرة فارغة.

رد تيم القاعد على كرسي من الكراسي بالقوائم الطويلة المنتشرة بمكتب المنظمة: «لا أظنها شخصا سيئا لذاك الحد لابد أنه سوء فهم»

صاح به سلام: «ما شفت بعينك العسكر وهو يجرونها مثل الكلب»

هز كتفيه: «إذن لماذا ساعدتكما على الخروج؟ وأيضا أنقذت وسام، لولاها لم يكن لينجو»

– «ما بالك قليل الفهم؟ هذه كانت خطة لكن الله كشفها»

جلست نور على الأريكة، وقد جاءت رغم الكسر الذي في ساقها، يتمايل جزئها العلوي ذهابا وإيابا في توتر وهي تنتظر عودة فدوى وخبطت كفا على كف متمتمة: «الله يستر من كم المصائب الذي تقع على رؤوسنا» فالبارحة على الساعة الثانية عشر ظهرا وبينما مياس يعبر إلى بلدة علين الحدودية مع إيد ليبو، تمت مهاجمة سيارته ووقع ضحية عملية اختطاف مع اثنين من مرافقيه، كانت رسالة المختطفين واضحة، إطلاق سراح أختهم في الله كما تمت دعوتها، في حدود أربع وعشرين ساعة أو سيتم تصفية الرهائن.

درس سامي المعطيات الجديدة، لم يتوقع أن يتحرك عناصر الفصيل بهذه السرعة. لم يستطع تحديد إن كان سيوافق جيش التحرير على التفاوض مع مجموعة من الإرهابيين، لكن المعلومات تؤكد له قوة علاقة المنظمة بجيش التحرير وبما أن مياس عضو رئيسي فيها فقد لا تسير الصفقة كما خطط لها، وتأكد له ذلك عند عودة فدوى برفقة جاد سمرا، الوكيل القانوني للمنظمة. كان محاميا لابنوني الجنسية ويعمل على نطاق دولي والأهم لديه قدرة كبيرة على إرضاخ خصمه.

أمسكت نور بيد فدوى وسألتها بتلهف: «هل مياس سيكون بخير؟ هل سينقذونه؟»

ربتت على يدها لتهدئتها وردت: «بإذن الله تعالى سيعود إلينا. الأستاذ جاد عمل جاهدا ليساعدني في التفاهم مع جيش التحرير، وقد أقنعهم للقيام بعملية تبادل الرهائن» غير سامي من وقفته وقد شد على ذراعيه أكثر من قبل.

حمدلت نور ثم قالت: «أدعو الله أن يعيده لنا سالما، سلمت يداك الأستاذ جاد، لابد وأنك في حاجة لفنجان قهوة بعد أن أتعبناك»

فلاح جاد بيده: «لا داعي لذلك كما أني سأشعر بالذنب إن قمت وأنت في حالتك هذه» وفك عقدة سترته المخملية قبل الجلوس وقال موجها الحديث لفدوى: «ستتم عملية التبادل تحت إشراف مجموعة مدربة من جيش التحرير، النقطة التي تؤرقني أن المختطفين من الدواشع يصرون أنهم سيتعاملون مع أعضاء من المنظمة فقط، لذا سيقوم عسكريان بالتنكر على أنهما متطوعين. لكن... أظن أن الفتاة تعرف أغلبكم»

قالت نور: «تقريبا، فقد دعوتها إلى هنا، رغم كل المؤشرات لم أستطع الشك في صبية صغيرة، فتاة مثل فلقة القمر. حقا إلى أي مستوى وصل إليه هؤلاء؟»

عقب سلام: «لقد نصحتهم يا أستاذ لكنهم لم ينصتوا» وأشار لنور التي شعرت بمزيد من الذنب وأردف: «حمدا لله أن شفيق

وافق على التفاوض مع داشعيين، لكن هذا هو القرار الصح رأس فاسد مقابل إنقاذ ثلاثة من إخوتنا الأبطال»

أجاب المحامي بابتسامة واثقة: «وافق مرغما فعملية الإقناع لم تكن سهلة إذ تبين أن الفتاة عنصر خطير»

– «إن يكن، إنها مجرد جرو من الدواشع الكلاب، ليبك صرماية أخي مياس وحدها تساوي حياة تلك المجرمة وأصحابها جميعا. الأهم أستاذي... أين ستحدث عملية تبادل الرهائن بالضبط؟»

أجاب المحامي: «في معرّة العرب» دور الرجل ذو الشوارب عيناه في هلع، فقد كانت المدينة بؤرة تختبئ فيها بواقي من عناصر داشع مما جعلها هدفا لقصف قوات التحالف الدولي، أكمل مطمئنا إياه: «لا تقلق ستتم عملية التبادل في منطقة توقف فيها القصف بعد تنقية الساحة من الإرهابيين. المهم هو التركيز على ما يحدث الآن، الذين سيرافقون الفتاة عليهم أن يكونوا أعضاء من المنظمة. بالتأكيد سنحرص على أنها لن تقوم بأي اتصال مع المختطفين لكن لن نقوم بأية مخاطرة لهذا نحتاج لوجه تعرفه. والعسكر سيضمن سلامة من سيذهب»

ردت فدوى: «أنا من سيذهب وسنكتفي بذلك لا داعي لتعريض مزيد من أعضائنا للخطر»

صاحت نور: «أبدا، هل أنت مجنونة؟ هذا خطر جدا»

رد المحامي: «إنها محقة، نحتاج لرجل فهذا أفضل» أدار سلام وجهه للجهة الأخرى ماسحا شواربه كأنه لم يسمع.

قالت نور: «ربما علينا الاتصال بياسر أو أبي خليل»

رفع سامي يده قائلا: «سأذهب أنا» استدار الحاضرون ناحيته متفاجئين بتطوعه، لم يكن يحبذ هذه الخطوة لكن هذه المعطيات تحتم عليه التصرف سريعا وإلا سيخسر ورقته الرابحة.

نظرت إليه فدوى وقالت: «بالتأكيد لن أسمح بذلك»

تدخل جاد: «أأنت واثق؟ أتفهم خطورة الوضع؟»

– «أجل، أرى أن أستاذ مياس يستحق منا هذا وأكثر، وأنا مستعد للذهاب»

فرفع تيم كلتا يديه بدوره وصاح كطفل في حماس: «وأنا وأنا أريد مرافقتكم أيضا. عملية مبادلة الرهائن؟ كأننا نعيش في فيلم أمريكي»

وضعت فدوى يدها على صدرها قائلة: «عزيزي تيم، هذه ليست لعبة ولا داعي لذهاب أي منكما» وقالت بإصرار لجاد: «أنا من سيذهب وانتهى»

فأطلق سلام تنهيدة عصبية ولاح بيده مستسلما: «إن كان ولابد، سأتطوع للذهاب. آنسة فدوى، نامي وأنت مرتاحة، سأعيد مياس وإخواني سالمين بإذن الله تعالى، سواء كان بمعرة العرب أو حتى جهنم» وأضاف متمتما: «بالرغم أنهما سواء هذه الأيام»

علق تيم: «كنت أعرف أن في داخلك بطل مقدام أخي سلام، إذا نجحت سأعمل لك لايك» ورفع إبهامه.

بدأت العملية في ساعة مبكرة من يوم غد، إلا أن العسكر لم ينطلقوا فعليا إلا بعد الحادية عشر صباحا، تعود سامي وبصعوبة على عدم دقة المواعيد في هذا المكان وهو في انتظار قدومهم. رن هاتفه برسالة من مزود أبي يزيد، يسأله إن كان جاهزا حسب الاتفاق فأكد له مكان اللقاء، ونظر إلى الساعة منتظرا بفارغ الصبر.

كان تيم الذي أقحم نفسه يرجو سلام بأن يتركه يذهب قائلا: «لقد عبرت الحواجز لآتي، أرجوك مررها لي، هذه المرة فقط»

نهره قائلا: «هل رأسك معطوب يا زلمة؟ من يريد الذهاب إلى الجحيم؟» وحملق سلام به وبسامي: «يا لهذا الجيل... لقد أفسدتكم كثرة الأفلام الرخيصة»

انتظر الثلاثة على قارعة الطريق الوطنية رقم ثمانية إلى أن وصلت سيارة تابعة لجيش التحرير، ترجل منها عسكري سمين وتبادل الحديث مع سلام. ارتدى كزملائه ملابس مدنية وأمرهم بإغلاق هواتفهم وقد ارتدى الجميع الستر البنفسجية للمتطوعين، حتى الفتاة التي تم نقلها إلى السيارة التابعة للمنظمة.

همس تيم قائلا: «إنها تبدو إنسانة طبيعية لا أحد يتوقع أن تكون مجرمة حقيقية، عندما أنشر سيلفي معها سيجمع كثيرا من اللايكات... يا إلهي إنها تنظر إلي، هل تبتسم؟» والتفت خائفا إلى الجهة الأخرى: «يا ويحي لم تبتسم في اتجاهي؟»

كانت ابتسامة واثقة موجهة لسامي، تظن أن الأمور ستسير على هواها لكنه فكر في السيناريوهات المحتملة وفق المعطيات، ثم رجح أفضل سيناريو لإنهاء مهمته بنجاح وخروجه سالما؛ أولا، كان عليه تغيير موقع التبادل وذلك بالاستعانة بأحد الضباط الذي سيخضع له إما بالترغيب بالمال أو تحت التهديد، وقد وجد واحدا مناسبا بعد اتصاله برياض. ثانيا، توجيه رسالة تحذير لأبي سلمان مفادها أن جيش التحرير ينصب لهم فخا ليربك الخاطفين. ثالثا، مقابلة المزود والحصول على مبتغاه. رابعا، أثناء عملية التبادل يجب تنبيه ضباط الجيش بفرار السجينة وسيؤكد لهم ذلك هجوم فصيل

الأنصار عليهم. النقطة غير المضمونة هي حياة الرهائن لكن هذه ليست مشكلته.

قبل تحركهم اتجه الضابط الذي سيساعده نحوه، كان شابا بوجه عريض وأقصر منه طولا وزادت السترة البنفسجية في عرض صدره عكس قدميه الهزيلتين. ادعى أنه يفتشه وقال هامسا: «تحققت من الرصيد البنكي، فلتتأكد من إرسال الدفعة الثانية في الموعد وسيكون ضعف المبلغ بالأولى، أليس كذلك؟» أماء له سامي ليطمئنه فأكمل الضابط: «للتأكد فقط، أتريد مساعدتها على الهرب؟»

تمعن سامي في وجهه خوفا من أنه يريد الرجوع عن كلمته فرد: «أستغير رأيك إن كان كذلك؟»

لاح الضابط بيده نافيا: «لا يهم ما دمت ستدفع، لكن من أجل سمعتي أمام قادتي علي أن أبدو أني حاولت لذا أريد تغيير شيء واحد في الاتفاق، سنقول أنها هاجمت محاولة الهرب، فهل تهمك حياة الفتاة؟»

لا يحبذ الطريقة الدموية للقضاء على شخص ما لكن سيكون هذا أفضل، التخلص من مجرمة للأبد. فأجاب: «بالتأكيد لا»

****

(4)

معرّة العرب، شرق جنوب إيد ليبو أيار X021

قطعت السيارتان مئة كيلومتر وتوغلتا أكثر نحو الجنوب، فما إن لاحت في الأفق لوحة تقول 'مرحبا بكم بمعرّة العرب' حتى فاحت في الهواء الساخن رائحة عفنة باردة.

كانت أغلب أحياء المدينة محاصرة إما جزئيا أو كليا وقد انقطعت أخبار ما يحصل بين أزقتها عن العالم. شن التحالف الدولي حرب إبادة على داشع بقيادة أمريكانية، معركة ضروس لهزيمة أكثر التنظيمات الإرهابية وحشية. كشّر العم سام المغوار عن أنيابه رفقة أقاربه من أحفاد نابليون بونابرت، ودول أوروبية كثيرة شمّرت عن سواعدها لمساعدته للقضاء على الإرهاب. لكن بواقي التنظيم أصبحوا أكثر سعارا؛ زرعوا على طريق الهروب ألغاما وكان قناصوه يطلقون النار على من يحاولون الفرار، فقد اتخذوا من السكان المحاصرين دروعا بشرية. يخرج مقاتلوه من جحورهم كالصراصير المتسللة عندما يباغتها ضوء مصباح المطبخ ليلا في محاولة للنجاة من الحملة العسكرية الكثيفة مما أدى إلى وقوع أهداف 'غير

متعمدة' للقصف العنيف الذي يخطئ في بعض الأحيان بالتفرقة بين مدني ومسلح.

سويت البيوت والمباني الخاصة والعامة والبنى التحتية إلى الأرض. فكل ما أحاط بسلام ومن معه هو ركام أبيض رمادي يسوده صمت شاحب في صحراء من الخراب وقد تفعمت أنفاسهم برائحة الجثث المتعفنة التي لم تجد من ينتشلها من تحت الأنقاض.

كان عليهم الترجل بعد الحاجز الأمني لوجود منطقة بها ألغام، مضى الرقيب ذو الرقبة المتهدلة أولا خلفه الداشعية مقيدة وإلى جانبيها ضابطين مسلحين، أما سلام فكان يسير وراء الشابين تيم وسامي، لاعنا إياهما. صحيح أن مياس رفيق مخلص وقلّ أمثاله من الرجال الشرفاء غير أن سلام لم يفكر أن يصل إلى هذا الحد من أجله لكن كانت ستكون ضربة قاضية لرجولته فكيف لفتيان في نصف عمره أن يكونوا أجرأ منه.

كانت كل خطوة يخطوها شاقة فالشمس الحارقة لم تبد لطفا في عز الظهيرة، وامتلأت الأرض بالأحجار الصغيرة الإسمنتية والحصى فلم يجدي حذائه ذي القالب السميك نفعا. زار هذا المكان قبل الثورة عدة مرات، يذكر بلدة جميلة بهوائها المعتدل وبيوتها البيضاء الفسيحة ذات القبب الخضراء الفسيفسائية.

لكنه لم يفاجئ بحالها الآن، لقد سمع بالقصف الذي حدث ويعرف ما يتبقى بعده، فقد محقت المئذنة الخضراء تماما وتصدع سقف المسجد بل أمكنه رؤية قاعة المصلين وقد انتشر فيها الغبار والنفايات التي جلبتها الرياح. أحاط بهم ركام لهياكل الإسمنتية من كل الجهات والذي كان بيوتا في وقت ما مما توضح من إطارات النوافذ وأنابيب الكهرباء البرتقالية وأيضا بعض الأثاث الذي رث بعد تعرضه لتغيرات الجو، وصارت القمامة المصدر الوحيد للألوان كالقطع الكرتونية والأكياس البلاستكية.

جاب ذباب سمين في الأجواء بمرح وبعض الحشرات الغريبة التي لم ير سلام شيئا مثلها من قبل، ظهرت إثر تعفن الأشلاء البشرية. التصقت واحدة بقميص تيم فصرخ ثم أخذ يقفز، التفت إليه ضابط مشيرا إليه بأن ألا يثير الانتباه لكن هذا زاد ارتباك الفتى، ثم ما لبث أن تعثر بشيء ما ووقع عليه فتوقفت المجموعة عن المسير. فقد كان الشيء عبارة عن جثة منتفخة وما أن لمح تيم وجهها يحييه حتى نهض مسرعا يستفرغ ما في أمعاءه بمشهد أكثر تقززا.

اختفت ملامح الرجل المقتول وبرزت منها العينان واللسان لا غير. أشاح سلام ببصره أما الرقيب فألقى نظرة عجلى: «طلقة

مباشرة في الصدر» ورفع رأسه نحو الأعلى: «ضربة قناص، لا أظنه قد مر على ذلك يومان»

تدخل سامي الذي دنا من الجثة قائلا ببرود: «لا، بل أكثر من ذلك، فمن لون الجلد الأخضر وانتفاخ البطن وأيضا الزبد الذي يحيط بالفم والأنف، أظنها قد مرت خمسة أيام على الوفاة على أقل تقدير» كان يتحدث بثقة كأنه طبيب مختص.

– «نعم، نعم أرى ذلك» ولكن ملامح الرقيب دلت على أنه لم يكن يعرف، وأمر الضابطين بأي يقوما بجولة استطلاعية سريعة، وأضاف ليثبت أنه يعرف المزيد: «ملابسه تدل على أنه من التنظيم النجس لا محالة»

قاطعته زهراء: «هذه إهانة لا تليق بنا، الرجل من المليشيات البيرانية المختبئة هنا» وانحنت ساحبة من جيبه رباط الرأس مكتوب عليه 'حزب القهار'، فعبس في وجهها وقال: «جميعهم سواء، المهم أن يموتوا جميعهم»

كان الرقيب قبيح الوجه أكثر سخطا من سلام نفسه وغير قادر على حزم أموره، فالطريق لم تكن سالكة كما ظن. تبادل أوامرا على اللاسلكي مع زميل له أما تيم طلب منديلا وقنينة ماء من سامي وقد شحب وجهه، فهذا سيلقنه درسا بالتأكيد.

سحب سلام علبة السجائر لعل دخانها يبعد الرائحة لكن وجدها فارغة ورمى بها نحو الأنقاض، ولما التفت لاحظ أن الصبية تعبث بملابس الجثة في غفلة من الجميع وتسحب شيئا معدنيا وتضعه تحت سترتها البنفسجية، توقفت عن الحركة وتبادلا نظرة. مسح سلام شواربه وهو يتقطر عرقا، مهما كان ما أخذته فلن يكون فيه خير وتجمد في مكانه لكنها لم تفعل شيئا ووقفت تنتظر الأوامر مقيدة اليدين.

أمر الرقيب الضابطين بالعودة وقال: «لا يمكننا المرور، هناك جثث كثيرة أرداها القناصون في كل ناحية. سنلتف من باب حي سالم ونمر من الجهة الشرقية للمدينة» كان ذلك يساوي مسافة عشرين كيلومترا إضافية.

سأله سلام هامسا: «وبعدها سيدي سنلتقي ب... تعرف... المختطفين»

– «لا، علينا أن نقابل قائد السرية التي أرسلها اللواء أولا للتنسيق معه. كما أننا لن نسحب معنا كل هذا الجمع» وأشار إلى الفتيين والعرق يسيل من جلد رقبته المحموم من الحرارة.

اقترح سلام: «إذن سيدي لما لا نتوقف في الاستراحة القريبة، إنها في المنطقة المحايدة وبعدها نسلك الطريق الفرعي»

لم يكن إقناع الرقيب صعبا بعد أن عرض عليه سلام وجبة في إحدى المطاعم بساحة الاستراحة فيما ظل مساعداه يحرسان الداشعية. كان يحاول كسب ود الرجل، فإن حدث شيء أثناء العملية فسيكون حليفه الوحيد وأيضا قد تنفعه علاقة كهذه في المستقبل القريب.

لسع دخان الشواء عيني سلام وهو يبحث عن طاولة وسحب الكرسي للرقيب ليجلس. امتلأ المطعم بالمسافرين، بين زواياه تجول همهمة خفيضة صادرة عن عشرات المحادثات، وقد انتشرت مجموعات من الجنود على الطاولات الخارجية.

أكل الرقيب طبق المخللات ونصف كمية الخبز الموجودة ريثما يأتي النادل بطلباتهم، وانشرحت أساريره عندما وُضع أمامه صحن شواء كبير مع البطاطا المقلية ومزيدا من المخللات والجبنة، وصحني زيتون أخضر وأسود أمامه فيما اكتفى سلام بطلب سندويش شاورما بثوم إضافي وجبنة فلا يستطيع أن يزيد الضغط على جيبه الذي أخذ ضربة قاصمة، فقد اشترى أيضا وجبتين للضابطين.

جمع الرقيب لقمة من اللحم المشوي في رغيف خبز بأكمله والتهمها مرة واحدة. قال سلام مشيرا للجنود الأجانب: «البلد بلدنا لكن أضحينا لا نستطيع عبور مدينة واحدة من دون موافقتهم» نتش الرجل اللحم من العظم وأماء موافقا الرأي،

«جيش التحرير ألا يملك بعض النفوذ هنا؟ شفيق معروف بصلابته وحدته» على من هم أضعف منه على الأقل.

– «السيد اللواء شفيق قاس الطبع قليلا لكن هذا ما تتطلبه الظروف، سنصل لإيد ليبو قريبا ونحررها، نحتاج للقوة فالمتشددون الإرهابيون والأجانب لن يخرجوا من أرضنا بسهولة» كان يمضغ الطعام بفم مفتوح ويتكلم في نفس الوقت.

– «على ذكر الأجانب، هؤلاء أصحاب التحالف الدولي لم يقدروا أن يحسموا المعركة مع الإرهابيين إلى حد الآن؟»

مص السمين العظم فامتلأت حفتي فمه بالدهن وهو يقول: «لن يتوقفوا إلا بعدما أن يتيقنوا أن داشع لم تعد قوة مهددة لهم، كما أنهم يستفيدون من الوضع؛ فالتحالف الدولي متهم بتحويل سورمادا والعراقة إلى منطقتي تدريب للطيارين والمقاتلين الجدد لأغراض زيادة الخبرات بحجة الحرب على داشع. وهكذا زادت نسبة الخطأ في المعارك وبالتالي مقتل مزيد من المدنيين» وفتح الكولا وشرب من القنينة متجاهلا وجود الكأس: «في العلوم العسكرية هناك قاعدة اسمها النسبة والتناسب، تسمح بمقارنة عدد الضحايا المدنيين في مقابل عدد المقاتلين. بعد أن راجع الخبراء العسكريون ما يحدث، وجدوا أن التحالف قام بهجمات أوقعت أعداد كبيرة من المدنيين، ولم تكن هناك أهداف عسكرية مهمة وحساسة» وتجشأ من الشراب

الفوار وأكمل: «بل حتى عندما تكون هناك أهداف عسكرية يكون عدد الضحايا من المدنيين يفوق الفائدة المرجوة من استهداف المبنى العسكري»

قضم سلام من الشاورما وقال متحسرا: «إيه الدم العربي رخيص عندهم»

فرفع الرقيب يده غير المشغولة بالأكل ورد: «ليس هذا وحسب، فبالنسبة لهم الساحتين العَراقية والسورمادية أصبحتا ميدان تجارب، مستخدمين صواريخ وأسلحة جديدة في انتهاك واضح للقانون الدولي، مستهينين بأرواح مواطنينا. تخيل معي على معرّة العرب وحدها نزلت أكثر من ثلاثين ألف غارة، بعد حساب سريع، يعني غارة كل ست دقائق على مدى أربعة أشهر. هذا العدد يفوق أعداد قذائف المدفعية التي استخدمت في أي نزاع مسلح منذ حرب فيتنام. أغلبها استخدمت فيها ذخائر تزن أكثر من مئتي وخمسين كيلوغراما وغالبا ما ينتج عنها دمار كبير في البنية التحتية»

– «وما في محاسبة على الإطلاق؟»

هز يديه مستسلما وقال: «يعني... هناك محاولة لأعضاء برلمانيين في الحكومة العَراقية، يسعون لفتح ملف تحقيق حول 'ضحايا القصف عن طريق الخطأ'، وقد اعترف التحالف بوقوع

ما يقارب ألفا ومئتي ضحية هذا الخطأ، ولك أن تضاعف هذا العدد سبع أو عشر مرات»

طلب سلام من النادل شراء علبة سجائر له ونقده بعض البقشيش وسأل باهتمام: «وهل تظن أن الرئيس العَراقي سيسمح بذلك؟»

– «إنها مجرد ثرثرة ولن يستطيعوا أن يثبتوا شيئا. إلى الآن بسبب هجوم التحالف وقعت أزيد من مئة واثنين وسبعين مجزرة، ولن يبق أمام المتضرر، الذي فقد أقاربه، إلا رفع دعوة، وأين؟ في المحاكم الدولية ولهذا سيحتاج لمحامي وأدلة قاطعة ثابتة كصورة من القمر الصناعي للطائرة التي قصفت منزله وهذا شبه مستحيل. لو أن سورمادا بإذن الله تعالى تحررت، فيمكن إقامة محاكم مستقلة حينها سيكون القضاء بالقرب من هنا، منا وفينا كما نقول»

– «ربما يمكننا أن نطالبهم بكلمة 'صوري' كما فعل الرئيس الفتحاوي عباس خبّاص»

قهقه العسكري معه وقد فهم ما قصده، فقد طالب خبّاص، الرئيس الدمية لفلستينا المحتلة، أن تقول المملكة الفكتورية كلمة 'آسف' لسماحها بتنفيذ وعد بلفور الشهير، قال الرجل الضخم وهو يمسح ذقنه: «اقتل، فجر ودمر ثم قل 'صوري'» وتابع قهقهته.

أكمل سلام كأسه من الشاي ورد: «على الأقل نضحك قبل أن نهجره في بقية رحلتنا»

دنا منه الرقيب وهمس له: «بيني وبينك، لا أنصحك بالذهاب، أغلب الظن ستتحول عملية التبادل لساحة قتال»

دفع الحساب بعد انتهائهم من الأكل وهو يفكر، لقد تطوع وقدِم بالفعل إذن لقد أكمل واجبه. عند خروجه من المطعم لمح تيم ذاهبا نحو السيارة التي بقيت فيها الداشعية محتجزة، فنادى عليه قائلا: «ما الذي تفعله؟» وقد كان يحمل في يده وجبات خفيفة.

أجاب وأشار إلى زهراء: «لم أستطع أن أتناول الطعام وأتركها هكذا، فسألتها إن كانت في حاجة لشيء فطلبت مني شراء هذه»

– «وهل أنت أحمق؟ فربما هذه الأشياء التي طلبت منك شرائها ستصنع منها مفخخات أو سلاحا»

رفع تيم لوح الشوكولا: «مفخخات بهذا؟»

أشار سلام إلى غلافه البلاستيكي: «يمكن أن تستخدم هذا في... لا أدري، في تفجير شيء ما، وعود المصاصة هذا يمكن أن يصبح سكينا ينخر أحشائك»

أجاب ضاحكا: «سأضع هذا في بالي عندما أسلمها هذه المصاصة القاتلة» ومضى نحو الضابط الذي فتشه على عجل ثم أعطى الوجبات للفتاة. لن يستطيع أن يترك هذا الغر وحده وبالرغم أنه يكره ذلك الفتى الأشقر لكن لن يتركه يذهب أيضا، فتنهد وسلم أمره لله. وعندما حاول ركوب السيارة وجد سامي عندها وقد ارتدى سترة مضادة للرصاص تحت ملابسه، سأله: «ماذا تفعل؟»

أجاب: «لقد كنت أول من أتطوع وعلي الوفاء بكلمتي» ثم طُلب منه مرافقة للعسكري ليشرح له سيرورة العملية فيما طلب من تيم وسلام البقاء وغمز له الرقيب في إشارة بأنه اتخذ القرار الصح.

****

شرح الرقيب لسامي قبل الانطلاق أنه سيتركه وحيدا عند اقتراب موعد عملية التبادل مع أحد ضباطه، كانت هذه الخطوة ضرورية لإقناع المختطفين بأنهم نفذوا شرطهم بتسليم السجينة من طرف عضو من المنظمة، وأخذ وقته للتثاؤب قبل أن يقول: «نفذ أوامر الضابط المرافق بالحرف الواحد، ولا تخف فنحن سنكون في أثركم نراقب من بعيد» وأشار إلى تابعه الذي سيرافقه نحو نقطة التبادل.

ارتفع صوت اللاسلكي بأوامر للتحرك فجمع من حوله وقال لأتباعه: «تمت رؤية بعض قوات الأسدي مختبئة في المنطقة فخذوا حذركم ولا تشتبكوا في قتال إلا إذا كنتم مضطرين. السرية الثالثة ستتولى أمرهم أما هدفنا إعادة الرهائن، مفهوم؟» للأسف سيضطرون للقتال، فقد أرسل سامي الرسالة لأبي سلمان وجهز هاتفه وسلاحه، ثم صاح الرقيب بالضابط المرافق: «هيا تحرك قد حان الوقت واخرج تلك الشرموطة لنتخلص منها»

وازن سامي خطواته وهو يراقب من كل تجاه في حذر، خوفا من ظهور مسلحين. لكن الضابط الذي كان يسير أمامه بخطوات طويلة وسريعة أكد أن احتمالية ظهور أحدهم ضئيلة لوقوع المنطقة تحت سيطرة التحالف، كان أداءه كما وصفه رياض، صعلوك يجيد التنفيذ عندما يدفع له. ومضى يسحب السجينة، التي لم تكن لديها فكرة عن موقع التبادل لذا لم تشك بشيء، خلفهما سامي يتفحص ساعته للتحقق من الإحداثيات، وعند إشارة طريق حمراء لا تزال صامدة، أشار للضابط إلى أنه سيقوم بتغيير المسار المتفق عليه، حيث يستلزم للوصول إلى الموقع الذي سيلتقي فيه بالمزود عشر دقائق. كان وجود الضابط نقطة إضافية له، فعند تسلم سامي للعينة وفك قيود الفتاة سيقوم بالضابط بما يمليه عليه عمله، وإن حاول المزود

الرد فسيكونان اثنان ضد واحد. كل هذا سيحدث في أقل من نصف ساعة. بعدها لن يمكث دقيقة إضافية في هذا المكان إذ سيغادر إلى لابنون ومن ثمة سيعود إلى فرنشا، هكذا سينجز أول مهمة له...

أشارت الساعة لاقترابه من الهدف فتقدم إلى الأمام باحثا عن أثر للمزود إلا أن أذنه التقطت طقطقة سلاح وفي اللحظة التي التفت فيها انطلقت رصاصة مباشرة إلى رأس العسكري من دون أن يجد أي فرصة ليدافع عن نفسه أو حتى أن يحرك ساكنا فحط على ركبتيه قبل أن يسقط على وجهه ميتا.

تجمد سامي في مكانه وقد لاحت فوهة المسدس نحوه وزهراء تقبض عليه بإحكام، احتار عن كيفية حصولها على المسدس فلا يمكن أن يصل جنود التحرير إلى هذه الدرجة من الإهمال، ثم لاحظ بعض العفن الدهني على معدنه فتمتم: «المسدس يخص... صاحب الجثة؟»

ردت بتهكم: «أوه، هذا ما يهمك الآن؟»

رفع يديه بهدوء وقال مراوغا: «أنصحك بعدم التهور فالجنود سيتبعون أثرنا في الحال» الحقيقة أنه إذا لم يتلقى الرقيب ردا في غضون دقائق فسيتحركون لكن في تجاه مختلف. خشخش اللاسلكي بيد الضابط الميت الذي لم تفده السترة المضادة للرصاص في شيء فأضاف: «محاولتك ستكون من دون

جدوى، سيلاحقونك ويقبضون عليك من دون شك» وأفرد كفه قائلا: «لازال أمامك وقت للتراجع»

فأشارت بالمسدس إلى رأسه قائلة: «ارفع يديك واغلق فمك وإلا ستلاقي نفس المصير» علت الخشخشة أكثر وقد تجلى التوتر على وجهها فحطمته بقدمها ونشلت المفاتيح من حزام الضابط

– «إنك تفسدين الأمر برمته، كان بإمكانك أن تصبحي حرة لو تأنيت قليلا، بل لا تزال الفرصة سانحة أمامك»

– «لا يهم فعندها سأكون قد جززت رقبتك بيدي، أكنت تظن أنني سأذهب من دون رد الدين؟» وابتسمت مظهرة أسنانها المصفرة من بين شفتيها المتشققتين وأخذت تتصارع مع المفتاح بيد واحدة وفتحت الأصفاد، حرك يده بهدوء نحو جانبه الأيمن ليسحب السلاح المخبأ فنظرت إلى عينيه كأنها تقرأ أفكاره: «حركة طائشة وستموت» وانتزعت المسدس منه ودفعت به إلى الأمام: «هيا تحرك!»

لم تكن قد خططت مليا لتصرفها الطائش فهذه المنطقة ينتشر فيها الجنود الذين سيقبضون عليها لا محالة قبل إيجاد فرصة للهروب، وقطعت الشارع نحو مدرسة محطمة قبالتهما. أخذ سامي يفكر لإيجاد حل فأمامه هنيهات معدودة قبل حضور المزود. لاحظ أن المسدس الذي بين يديها كان من نوع

الطاحونة أو كما يقال له بالعامية الفردي، يعتبر أفضل مسدس للاغتيال لكن لديه عيوب كثيرة. أولا، طلقاته قليلة وصعب التذخير إلا أن هذا لن ينفع فطلقة واحدة ستنهي حياته. ثانيا، إن كان العدو قريبا؛ فالأسطوانة التي أخذ المسدس منها اسمه الطاحونة يمكن إيقافها باليد وعندها لن يرمي. دخلا قاعة كانت قسما فيما مضى مما أظهرته خرابيش الأطفال على الجدران وسبورة تقشر طلاؤها الأسود وقد دفنت الطاولات تحت الخرسانة المهدمة فترقب بهدوء اللحظة المناسبة إلى أن أصبحت قريبة بما فيه الكفاية وفي غفلة منها مد يده إلى ذراعها اليمنى بسرعة خاطفة، فما كادت أن تضغط على الزناد حتى أمسك بأسطوانة المسدس بإحكام مانعا دورانها. لوى ذراعها ورمى بالمسدس إلى الأرض ثم دفعها نحو الجدار، حقا لما كان عليها أن تصعب الأمور على نفسها.

وحينما ظن أنه قد أفلح رأى بندقية تستعد عند مدخل القاعة وصاح به صاحبها: «ابتعد عنها الآن وإلا أطلقت النار»

رفع سامي يديه في الهواء، لم يفهم كيف وصل رفيقها المسلح هنا فموقع تبادل الرهائن ليس بهذه المنطقة، أما هي جمعت خصلات شعرها المتشعثة وقالت: «لقد تأخرت في المجيء يا حسين»

– «لأني لم أتوقع أن أتلقى رسالة منك»

رسالة؟ فلوحت له بهاتف ذكي قائلة: «الحقيقة كنت سأنتظر إلى أن تتم عملية تبادل الرهائن لكن صديقك تيم كان ألطف بكثير منك فقد أعاد هاتفي الذي أضعته برحابة صدر، حتى أنا لم أتوقع منه هذا، يجب أن تتعلم كيف أن تكون لطيفا مثله» هل يمكن أن يصل ذلك الأحمق إلى هذا الحد من الغباء؟

سألها رفيقها مشيرا إليه: «من هذا؟»

– «إنه مخبر أبي سلمان الشهير، لقد كان السبب في القبض علي»

فعض المسلح على شفتيه: «الحقير» ووجه ركلة إلى بطنه وأسقطه على الأرض ثم كاله الضربات إلى صدره إلى أن ذخرت الفتاة سلاحها وتولت دورها لتوجه الفوهة إلى رأس سامي قائلة: «سأقتلك ببطء إلى حد ستتمنى فيه الموت»

امتص سامي ريقه فقد أطيح به في أسوأ سيناريو يمكن تخيله فقال متألما: «قبل أن تفعلي تذكري أنني يمكنني أن أساعدكم فأنا أعرف مكان احتجاز أبي يزيد»

– «أوه هذه أصبحت قديمة»

تدخل الآخر: «تخلصي منه بسرعة، أتعرفين أنه أخبر أبا سلمان أنهم قاموا بتصفيتك، كنا نتجهز للهجوم لو لم تصلني رسالتك»

تطاير الشرر من عينيها المتعطشتين للقتل: «إنك وغد بحق، لقد كنت موقنة إنك تخطط لمكيدة»

تلاحقت أنفاسه التي ستكون الأخيرة إن لم يتصرف فرن هاتفه وقد كان المزود الذي ينتظر، فقال محاولا كسب الوقت: «انتظري! أظن أن لدي شيئا قد يثير اهتمامك»

فضغطت بفوهة المسدس أكثر وقالت: «لن أقع في ألاعيبك أيها اللقيط!»

– «أستطيع الحصول على السلاح الشبح» نظرت إليه في تساؤل، هل لا تعرف بوجوده؟ ورن الهاتف من جديد فأكمل: «هذا رسول أبي يزيد وسيسلمني عينة من المادة»

– «كيف...» تمتمت وأرخت قبضتها عن الزناد مؤقتا فقال حسين: «هيا اجهزي عليه، قد يأتي الجنود في أية لحظة»

لكنها سألت سامي: «من أين علمت بوجود المادة بل لما سيسلمك العم إياها؟»

– «الشرح سيأخذ وقتا والمزود لن ينتظر طويلا»

– «إنك لكذاب ابن كذاب»

– «تفضلي واقرئي الرسائل» فسحبت هاتفه.

عقب حسين بعصبية: «ماذا لو كان فخا؟ فلننتهي منه ولنرحل»

حدقت إلى الهاتف والتزمت الصمت لفترة ثم رمت به نحو يدي سامي قائلة: «فلتخبره عن تغيير مكان اللقاء»

****

توغلوا إلى عمق مناطق ينتشر بها مسلحي داشع بكثافة. كان حسين يجر سامي أمامه ويلكز ظهره برأس البندقية كلما تلكأ في التقدم، في حين أن زهراء تمشي إلى جانبه وقد فتحت كيسا من حبيبات الشوكولا الرخيصة تشاركته معه.

وبالقرب من زقاق منازله معلمة بدائرة صفراء، رفع حسين يديه إلى الأعلى بشكل متقاطع. فهم سامي أنها علامة متفق عليها لكيلا يطلق عليه أحد من رفاقه المختبئين النار. كانوا عناصر الفصيل الذي قصده الرقيب، إذا عد الوقت الذي يحتاجه المزود للحاق بهم وباعتبار أنه واحد من الجهاديين الذي يستطيعون المرور من هنا من دون صعوبة، فذلك سيوافق لحظة شن السرية الثالثة هجومها عليهم مع فارق زمني قصير. قد تكون تلك فرصتي الوحيدة... ضغط على أزرار ساعته

خفية محاولا الاتصال بأقرب تردد ضمن خطوط جنود جيش التحرير ليطلب الاستغاثة، وتوقف حين أخذت زهراء تلتفت يمنة ويسارا ثم سألت حسينا: «لأي فصيل تنتمي هذه المنطقة؟»

– «فصيل أبي شداد، إنهم حقا اسم على مسمى، رغم الحصار لا زالوا صامدين في مواقعهم»

أطلقت زهراء آهة استهجان: «إنه ليس الصمود وإنما الخوف، لا يستطيعون الانسحاب خوفا من غضبة الأسدي اللقلوق وأرانبه»

وشوش عليها حسين: «من الأفضل ألا تتفوهي بهذا أمام أحد من أعوانه»

لوت الفتاة فمها غير مكترثة وكمشت الكيس بكفها وقد برقت لمعة خبث في عينيها: «إذا حصلت عليها، فيمكنني تلقينه درسا»

– «تلقينين من؟»

وقالت رافعة حاجبيها مشيرة لسامي: «إن كان هذا الجرذ صادقا فلن يكون هذا صعبا» ولم تعط إجابة واضحة لرفيقها الذي ظل يخطف نظرات مترددة ثم استجمع شجاعته كما تبين

من تعابيره سهلة القراءة ككتاب مفتوح: «هل... آذوك كثيرا، أولئك الزنادقة»

لمست زهراء جرح جبينها: «تقصد هذا؟ ليس بأمر جلل، رغم كل ما فعلوه لم أعطهم ولو معلومة واحدة تفيدهم» وتجلت ابتسامة رقيقة على محياها قائلة: «أنا مدينة لما فعلته من أجلي، أعلم أنه لم يكن سهلا»

– «رغم ذلك أشعر أني تأخرت» وأشاح بوجهه متضايقا: «كان علي ألا أتركك ساعة واحدة في الحجز. لم يفعلوا... بك شيئا سيئا؟»

ساخرة أجابت: «بشيء سيء تقصد ضربي أم غير ذلك؟»

– «أنا أطمئن وحسب»

عبست وردت: «لست بذلك الضعف الذي تظنه»

كلما أطالا في الحديث تبين لسامي أن علاقتهما أقوى من رفيقي سلاح، فتاة ورجلها، هذا فسر له التحرك السريع لتحرير الفتاة من قبضة جيش التحرير، لو كان يملك هذه المعلومة في وقت سابق...

كان موقع اللقاء بملعب كرة قدم قُسّم بأسلاك مدببة إلى بقعتين متكافئتين في الدمار، تحول بفعل الصراع إلى ميدان معركة

منتهية وقد انتشرت فيها بقايا الذخائر والأكياس الرملية إضافة إلى حفر تجمعت فيها نفايات زيتية والبقع السوداء التي خلفتها الآليات وأحاطته من ناحية الرصيف بعض النباتات المتيبسة بفعل الجفاف.

تقدم سامي بحذر نحو زهراء قائلا: «سيكون من الأفضل اتباع ما اتفقنا عليه أنا والمزود، فقد يعود أدراجه إن وجد شيئا لم يتوقعه»

– «وماذا كان يتوقع بالضبط؟» وأمالت رأسها: «هل العم من أخبرك عن المادة؟» وهزته متمتمة: «لا، هذا لا يبدو صحيحا»

قد كانت ثمن سراحك أيتها الحمقاء، كان لا يدري ما ستكون النتيجة وقد انقلبت الأدوار عليه لكن هاذين لم يفطنا للتفاصيل. دفعه حسين جانبا وقال لها هامسا: «أحقا عليك أن تصدقيه؟ أغلب الظن أنه فخ»

أجابت الفتاة: «في كلتا الحالتين سيكون أمره منتهيا» وعضت على إبهامها فهي أيضا كانت تترقب حضور المزود بفارغ الصبر ثم أضافت: «لا بأس، إذن ما الاتفاق؟»

أجاب سامي: «لقد كان شريكي من سيقدم المال في حين أنا سأتسلم العينة، لكن ما حصل أن المال بقي في حوزته»

فقاطعته زهراء صائحة: «انتظر، أتقول لي أنه كان يملك مالا؟ خسارة... كم تقريبا؟»

كان سؤالا من دون فائدة فأجاب مسايرا بأول رقم بدا له مناسبا: «ثلاثمئة دولار»

– «ث... ثلاثمئة؟ لماذا لم أبحث في جيوبه، الله يلعن هذا الحظ»

قال سامي ليعيد انتباهها: «لذا فكرت بطريقة قد تنفع، سنطلب منه وضع العينة على بعد أمتار في المنتصف بيننا وبينه، في حين سيذهب أحدنا لمماطلته ويفضل أن تكوني أنت بما أنك... فتاة»

صاح حسين: «ماذا تقول يا عديم الشرف؟»

لكن انتظر رد زهراء ولم يكن متأكدا إن كانت ستبتلع الطعم فقالت من دون تفكير: «لا بأس عندي»

فصاح حسين: «لا يمكنك أن تنفردي معه، ماذا لو حصل شيء؟»

– «وما الذي سيحصل؟ كلما علي هو إقناعه بأن المال سيصله في وقت لاحق»

– «لا، لن أسمح بذلك»

فزفرت: «لماذا تعقد الأمور؟»

– «ولماذا تحتاجين إلى أن تفعلي ما يمليه عليك هذا الخسيس؟»

تمتمت: «إن المزود رجل من طرف العم، لا بد وأنه يعرف شيئا عنه»

فدار حول نفسه مستغفرا وقال: «حسن لكن عليك...»

– «علي أن أحذر، أعلم لذا لا أحتاج لأن تقول لي ذلك وأنت راقب هذا الجرذ جيدا» وسمعوا صدى محرك دراجة نارية يشق الطريق صوبهم، جهز حسين البندقية وسار لمقابلة سائقها أولا عند توقفه.

كان الرجل ملثما بكوفية ويشد على رأسه عصابة سوداء كتبت عليها الشهادتين، رغم درجة الحرارة المرتفعة كان يلبس بسطارا مدعما ويضع قفازات جلدية متينة. سأله حسين: «أنت من طرف أبي يزيد الشامي حقا؟»

رد الرجل بإيجاب وعم الصمت للحظات بينما هو يتفحص مستقبليه ثم قال: «لقد جئت بأمانة للشاب الأشقر» وقبل أن يتفوه بتفصيل إضافي قاطعه سامي شارحا كيف ستجري العملية، شعر الرجل بالريبة لرؤيته تحت تهديد حسين لكنه وافق لأنه سيحصل على ما يريده؛ العينة مقابل سلامة الفتاة.

وقد أوضح له سامي هامسا أن أي خطأ في التسليم سيدفع بالمسلح الذي يرافقه بإطلاق رصاصة قاتلة نحو الرهينة، ولم يكن صعبا إقناعه بما أن وقفة حسين المستعد للهجوم على الدوام جعلته الجاني الأكثر شبهة بينهم.

وضع المزود علبة سوداء صغيرة عند الأسلاك بالمنتصف، واتجه نحو الجهة المقابلة حيث وقفت زهراء بانتظاره. عندها انطلق سامي ليأخذ العلبة التي تحمل جوهر مهمته، العينة والاسم أيضا وأذناه تنتظران بداية الاشتباك الوشيك، متمنيا ألا يحدث عند فوات الأوان.

قبض على العلبة بين يديه في حين وقف حسين يجول ببصره بينه وبين زهراء التي أصبحت في مواجهة المزود وقبل أن تنطق بأية كلمة انطلقت رصاصة في الجو تلاها تبادل عنيف للنيران على مسافة قريبة من الملعب. كانت ردة فعل حسين متوقعة فقد جرى إلى حيث توجد الفتاة تاركا إياه، فأخفى سامي نفسه خلف الأسلاك وانطلق مسرعا إلى الشارع وبعدما ابتعد بما فيه الكفاية، توارى خلف عمود من الاسمنت وفتح العلبة ليتحقق من محتواها.

غاص بريق الشمس بين بلورات سطح الرصاصة الماسي، كانت بحجم الرصاصة العادية إلى جانبها مكعبات من نفس المادة عرض كل واحد منهما سنتمتر واحد وعلى أطرافها

شعيرات شفافة شديد التوهج، إذن أهذه هي المادة الشبح البيضاء؟ لم يوحي شكلها الشبيه بالجواهر على أنها سلاح مما زاد من فضوله. مد يده نحو الرصاصة فما أن لمس سطحها حتى احترقت أصابعه من شدة حرارتها وسرت قشعريرة من الألم الحاد في كفه نحو ذراعه، وهو يتلوى من الألم، ارتمت العلبة من يده وتدحرجت الرصاصة على الأرض، كانت كاللهيب. لا، إنها أشد حرارة، كأن النار تتغلل إلى مسامه وتحرق خلاياه من الداخل. في اللحظة نفسها وجد الفتاة الداشعية قد اقتربت منه وأوقفت الرصاصة المتدحرجة بقدمها قائلة: «هذه كانت هدفك منذ البداية؟ لقد كنت مخطئة، حسبت بأنك من الأشخاص الذي يعرفون مصدرها الحقيقي لكن لا يبدو أنك تعرف شيئا» وحملتها بيدها مكملة: «إنها آسرة، أليس كذلك؟»

أمسك سامي بيده التي لا تزال ترتجف متسائلا عن الخدعة التي تستخدمها الفتاة فقد كانت تمسك بالرصاصة من دون أن يصيبها ما أصابه، ودنت منه مضيفة: «سيكون مشهدا جميلا رؤيتك تحترق ببطء ويتفحم جسدك كالنفايات العفنة» ووضعتها على يده المصابة لتزيد من ألمه وقالت: «ما بك؟ ألا تريدها؟» ثم تجلت نظرة متوحشة في عينيها وهي تقول: «إن هذا جزء من الدين أيها اللقيط»

تبعها حسين قائلا: «لقد هرب المزود»

ردت زهراء حانقة: «هذا لأنك أخفته»

– «ماذا؟ لقد كان متآمرا مع الخسيس، سأتخلص منه والآن» وكاد أن يطلق على سامي فأوقفته: «كلا، ليس قبل أرد له الدين بأكمله»

– «وجوده سيؤخرنا وحسب، فلنتخلص منه»

– «أنا من سيقرر ذلك، لا تنس أنه رهينتي» لم يعجب ردها الرجل وتنشق غاضبا، لم يدر سامي ما الأكثر خطرا على حياته بينهما الفتاة المخبولة أم الرجل المسعور وقبض بيده اليد الأخرى التي أصابتها الحروق.

دوى صوت الرشاشات الآلية أعلى من ذي قبل، نظرا إلى بعضهما فسيعلقان في رحاب المعركة، علق حسين: «جيش الزنادقة الجبناء، لم يكن يوما لديهم الشجاعة الكافية فيقاتلون الآن تحت حماية الأجانب»

– «جيش التحرير أو الأسدي إنهم سواء»

– «الأسدي أحد من القادة، وعلينا أن نعمل على أن ينتصر»

– «قائدنا هو أبو يزيد وليس الأسدي الزنديق، ولقد عبث معنا أولا ظنا منه أننا مجرد بيادق في مخططاته اللعينة» فتمتم لها حسين بأن تتراجع فأجابته في حزم: «لقد فجر المتجر وأنا

بداخله» ولاعبت الرصاصة بين أصابعها فحملق فيها الرجل وكأنها تكتب صك وفاته.

رغم رفضه، سايرها حسين ونفذ ما طلبت بتقييد سامي، الذي أمسك برأس الحبل من دون أن يلاحظا، وهمس ناحيته محاولا خلق مزيد من التوتر بينهما فذلك سيصب في مصلحته: «لم أكن أعلم أن الأنصار يأتمرون بكلمة طفلة»

فشد حسين الحبل أكثر ورد: «فلتلجم لسانك وإلا قطعته» وسحبه كالشاة خلفه متجهين صوب ميدان المعركة، تتقدمهما زهراء بخطوات متحمسة وقد أقرضها حسين البندقية طائعا.

اختارت زهراء بقعة بين كومة من الآجر المتساقط لم تكن مكانا مناسبا للقنص، تساءل سامي إن كانت تفكر الاشتباك في القتال أيضا فهذا يعني خسارة حتمية لهما. وضعت الرصاصة الماسية في مقدمة مشط الذخيرة وجهزت البندقية وصوبتها نحو سامي الذي لم يفهم شيئا وعطلت زر الأمان قائلة: «سنرى إن كان لديك ما يكفي من الحظ، فإن لم تظهر أضحية في الوقت المناسب فستؤدي دورها»

بماذا تتفوه هذه المجنونة؟ ولمحت مقاتلا يتسلل خلف هيكل سيارة محطمة من بعيد فقالت: «إنك محظوظ لظهور هذا غير المحظوظ» وضغطت الزناد وأصابت المسلح بين عينيه ومن لا شيء خلق انفجار مدوي...

وقفت زهراء في مركز النيران، احمرت وجنتاها تحت بشرتها القمحية الهجينة وتطاير شعرها المتموج وعلت النشوة عينيها شديدتي الاخضرار، كان وهجهما يطغى على اللهيب الحارق نفسه. لفحت وجه سامي حرارة الانفجار وتناثرت الشظايا حوله، تطايرت أشلاء الذين وجدوا أنفسهم قربها واحترقت جلودهم بسحب النيران البرتقالية الرمادية الملتفة لكن لم تقترب من سامي ولا من حسين كأن هناك حاجزا خفيا يمنعها، دام الانفجار لثوان معدودة وانحبس مخلفا أرضا سوداء محمومة.

****

سلكوا الاتجاه الشرقي لمخبأ قوات الأسدي المدمر وعلى بعد ستمئة متر، وجدوا أنفسهم بحارة القادسية. كان الحي محاصرا بالكامل وقد قُصفت أجزاء منه وبالرغم من ذلك لا تزال أغلب المنازل صامدة. سارت المجموعة بمحاذاة الركام، لم يكن صعبا تفادي رصاص القناصة أما الطرقات المفخخة فعبروها عن طريق المشي على دماء أولئك الذين انفجرت بهم الألغام وهو يحاولون الهرب، وأحيانا بتجنب كوم التراب الصغيرة المثيرة للشبهة أو حتى الأكياس البلاستيكية المنتفخة.

احتموا داخل أحد البيوت في انتظار هبوط الظلام بعد أن تأكدوا من أنه فارغ. بالرغم من بابه المتصدع كان كل شيء لا يزال في مكانه بالداخل؛ كقاعة الجلوس بكنباتها المرتبة، وطاولة افترشت بمئزر مطرز وضع عليها صحن فواكه فارغ وخزانة كتب زينت حواشيها بمجسمات خزفية، وعلى الجدار علقت بعض الصور العائلية يعلو التراب زجاجها. دنت منها الصبية تتمعن في وجوه خمسة أفراد مرتدين أبهى حلة التقطت لهم الصورة في نفس القاعة.

قال حسين وهو ينظر حوله: «أغلب الظن فروا تاركين خلفهم كل شيء حتى صورهم»

همست الصبية: «أو أنهم لم يسعفهم الوقت ليرجعوا إلى البيت» فقد فاحت رائحة الموت من ملامحهم.

أشارت لحسين بأن يضع المخبر الأشقر في خزانة أحذية قرب باب القبو، فقد أجلت التخلص منه إلى أن تحصل على مكان احتجاز العم فبعد حصولها على المادة الشبح سيكون تحريره في متناول يدها.

ارتمى حسين على الأريكة وقد كان منزعجا مما حدث قبل قليل، فجلست على الطاولة وثنت رجلا تحت الأخرى مقابلة له وقالت: «أأنت خائف؟» بدا أنه لم يستوعب أن الأسدي من

الآن وصاعدا سيفكر مليا قبل أن يزعج أي فرد من فصيل أبي يزيد وكل هذا بفضل المادة.

تجهم وجهه أكثر ورد: «إني لا أخاف إلا من الذي خلقني، لكنه كان تصرفا متهورا وأيضا ذلك الحجر عندما ينفجر... إنه أمر شيطاني والعياذ بالله»

هزت كتفيها معقبة: «إنه مناسب لشياطين الإنس، ألا تظن؟ كأبي حمزة مثلا» وضحكت شامتة بما حصل لأتباعه فقاطع حسين ضحكتها: «إنها ليست مزحة، لقد تركتك لتشفي غليلك لتلاعبه بك وعلى كل حال، سنغادر هذا البلد المنحوس قريبا» ثم غزت بسمة وجومه على حين غرة وأضاف: «لنعقد قراننا ونرحل، سنبدأ حياتنا من جديد في أفغانيا» لم تعرف كيف ترد، فليس هذا ما تريده لكنها لا تستطيع قول شيء لأنها في حاجة لمساعدته.

حملق فيها قائلا: «ألا تظنين أن هذه الملابس...»

– «آه تقصد ألوانها، إنها تثير الانتباه» كالسترة فاقعة اللون والقميص الضيق لكنها كانت مريحة عكس ما توقعت

– «لا، أقصد أنها... غير محتشمة، ربما يوجد في البيت ملابس أفضل وأيضا غطاء للرأس» كانت هناك سلطوية في

نبرته، لقد تغير حسين بالنسبة لها، لقد تغير كثيرا... إلا أنها سايرته قائلة: «معك حق، سأبحث عن شيء مريح أكثر»

صعدت إلى الأعلى ودلفت أول غرفة، كانت خالية من الأثاث إلا الأرض فقد افترشت بسجادة تركيشية، وعلى الجدار المقابل للباب ثقب كبير سببه نزول قذيفة، جزء منه يطل على الشارع وجزء آخر سقط من جدار المنزل المجاور مطلا على حجرة نوم. اقتربت بحذر من الفتحة المظلمة وقد أُسدلت الستائر مانعة دخول ضوء النهار وتسربت منها رائحة بخور وحرمل. توقفت عند الركام فقد لمحت على السرير شخصا نائما يلفه الغطاء من رأسه إلى أخمص قدميه. فما كادت أن تخطو خطوة أخرى إلى الأمام حتى طل وجه شاحب مليء بالتجاعيد العابسة تنبثق منه عيون رمصاوية متغضنة فجفلت الصبية وتعثرت لتسقط على الأرض.

وقفت أمامها عجوز برداء أسود وقالت بصوت أجش: «من أنت؟»

– «أنا أنا...» لم تستطع أن تخرج كلمات مفهومة من أثر المفاجأة

لمحت العجوز سترتها فقالت: «إيه أعرف من أنت، أنت من الذين يبيعون أخبارنا ويتبجحون بذلك» لم تفهم الصبية ما

تقصد من الوهلة الأولى فأضافت العجوز: «يتركون الصحافة تدخل ويمنعون القوت والماء عن العباد»

ففهمت أن العجوز اختلطت عليها سترة المنظمة بسترة الصحافة فردت مصححة: «أنا لست من تعتقدين»

لكن العجوز لم تأبه وأمسكت بيدها بقوة قائلة: «قتلوه... قتلوا ابني، دمه في رقبتهم إلى يوم القيامة»

تمتمت الصبية: «أنا... آسفة لكن أظن أن علي العودة»

أرادت التملص من يد العجوز لكنها كانت أقوى مما تبدو عليه وانغرست أناملها المتعظمة في جلد كفها: «لا، تعالي وصوريه، العالم يجب أن يرى»

– «أصوره؟»

فأشارت العجوز إلى الشخص النائم على السرير: «نعم، مرت أيام وهو مقتول... أيام! لكن لا أستطيع أن أدفنه، احنا يا دُوبْ نستطيع أن نطلع من بيوتنا»

تجمدت الصبية بنظرات حائرة، ربما هي قد اعتادت مناظر القتل والدمار، لكنها لم تعتد يوما مناظر الضحايا الأحياء، إنهم يجعلونها... أخاف؟ فردت لتماطلها وهي تتراجع للوراء

كأنها تبتعد من شبح: «حسن فقط دعيني أجلب كاميرا» ثم غادرت بخطى متسارعة تفر من أكثر شيء يرعبها.

كان حسين يفتش بين دواليب المطبخ فلما رآها عائدة قال: «ما الأمر؟ ما بال وجهك شاحب هكذا؟»

فردت محاولة تركيب فكرة ذات معنى: «هناك سيدة عجوز وابنها الميت على السرير... أخبرتني أنها لا تستطيع دفنه»

– «أعجوز لوحدها؟ أتأكدت أنها لا تشكل خطرا؟ يجب علينا أن نكون حذرين»

لكن الصبية لم تكن تستمع له ورددت: «ولكن لما لا تستطيع دفنه، أوليس إكرام الميت دفنه؟»

أجابها الشاب بنبرة تحليلية: «لا عجب في ذلك، فالمقبرة بعيدة من هنا وإن أرادوا دفنه في ساحة خالية من الشارع عليهم تجاوز القناصة والآن صاروا أنواع، قناصة من الميلشيات والتحالف» ثم وضع علب بسكويت قديمة وعلبة سردين في حقيبته، عثر عليها في الدولاب: «فلتتجاهليها. على كل لن نمكث طويلا هنا»

لم تستطع الصبية وصف شعورها تماما، فالمأساة ليست فقط بأن المرأة لا تستطيع دفن ابنها بل بأن هذا الأمر يكاد يطغى على مصيبة مقتله، كأنها مأساة تضاعفت لآلاف المرات.

سمعوا وقع أقدام صادرة من الطابق العلوي فقالت: «إنها هي، أظنها تنتظرني، ستشعر بالريبة إن غادرنا هكذا»

نظر حسين إليها متسائلا: «ومن يهتم؟»

– «فلنستمع لها على الأقل، لن نخسر شيئا» وأضافت ملوحة بسبابتها: «وأيضا... ملابسك إنها... غير مناسبة، سيكتشفون من أنت» وقبل أن يجد وقتا للرد سبقته إلى الأعلى.

كان البيتان متجاورين والفتحة في الجدار جعلتهما واحدا، فبعدما تخطتها الصبية وجدت نفسها في منزل العجوز الذي أخذ حصته الأكبر من ضربة القذيفة، سقط جزء من السقف وحائط الغرفة بالكامل فتراكمت أحجاره المطلية بالأزرق السماوي، بغض الطرف عن الحطام كان بيتا جميلا، شبابيكه باللون الوردي وزجاجها مزخرف على أشكال فسيفسائية ربيعية.

وجدت العجوز في انتظارها مع أناس آخرين. قالت لها حين رأتها تنظر بحيرة إلى هذا التجمع: «هؤلاء جيراني، جاؤوا ليتحدثوا، يريدون من العالم أن يسمعهم. هناك غيرهم لكنهم لا يستطيعون الخروج» جلس رجل مع طفلين لم يتجاوز أكبرهما السابعة يحومان حوله وشابة صغيرة العمر ترتدي كثياب العجوز السوداء كأنها في حداد أيضا ورجل آخر بضمادة على

الجانب الأيمن من رأسه. اصطنعت الصبية ابتسامة لطيفة وعرفت على نفسها باسم زهراء، لم تعرف كيف تتصرف فحاولت أن تقلد فدوى بجلستها الخجول.

وقف حسين في الخلف وعلى وجهه علامات عدم الرضى، فسألتها العجوز: «هل ذاك هو المصور؟ أين هي الكاميرا؟»

فردت وهي تحك مقدمة رأسها: «لم نستطع إدخال كاميرا كبيرة الحجم لكن ذلك الرجل سيصوركم بالهاتف» ثم أشارت إلى حسين بإصرار فسايرها مرغما وأمسك بهاتفه الذكي.

قالت الشابة متفهمة: «لابد أن الدخول كان صعبا عليهم أيضا فلا تخيفهم يا أم عبدو» وابتسمت لزهراء بلطف، كانت ذات جمال ناعم بوجه بيضاوي شديد البياض وعينان سوداوين غرتين مع أنف صغير مستقيم، لم تكن تبدو أكبر منها سنا.

لم تقتنع العجوز تماما إلا أنها تنهدت وقالت: «فلنبدأ معك يا أبا راشد، احكي لهم فحالتك شبيهة بحالي»

كان رجلا قصير القامة بشعر أسود كثيف وشارب طويل غير مرتب، وتغلب على ملامحه صلابة الرجال الشآميين القدماء، أجاب: «أختي يمنة الله يرحمها...» فترحم الجميع من بعده بصوت خفيض: «كانت في الثلاثين، ماتت من جراء التهاب من التيفوئيد حين لم يتوفر العلاج. مضى أسبوع على وفاتها»

ثم صارت كلماته متقطعة ويضع يدا على يد: «لقد ماتت المسكينة ولم تتزوج حتى، إيه كيف يتزوج المرء في جو مشحون كهذا وهو لا يجد لقمة يسد بها رمقه. لكن أسوء ما في الأمر، الرائحة. إيه الرائحة التي طلعت، الواحد فينا ماذا يستطيع أن يفعل؟ لا شيء، فلا نستطيع دفنها. لفينها بالغطاء بالصالون وأقفلنا الباب. زوجتي وأبنائي حين ينظرون نحو الباب المغلق تصيبهم القشعريرة. فمن جهة القصف والقنص يذكرهم بالموت بكل لحظة، ومن جهة الموت نفسه قابع في قاع الدار، أنا عن نفسي لم أعد أحتمل» ثم طأطأ رأسه متمتما: «لا حول ولا قوة إلا بالله» واندثرت تلك الصلابة وتبددت العزيمة، أراد أن يظل رافعا رأسه لكنه اكتفى بأن حمد الله على بقائه حيا مع أفراد أسرته الخمسة ثم أضاف: «مصيبتي أهون بكثير مما أصاب أبو حازم» ونظر للرجل المصاب الذي تردد في الحديث فألح عليه أبو راشد.

عقد الرجل المصاب ذراعيه واسترسل في الحديث: «كان المهربون، الذين أغلبهم من الدواشع، يتقاضون مئات الدولارات عن الشخص الواحد لتهريبه» كان ينطق الكلمات بوهن: «فقررت أنا وأفراد عائلتي أن نهرب بأنفسنا، كنا تسعة أفراد، زوجتي وابناي وابنتي الصغيرة التي لم تكمل عاما واحدا، وأيضا أبواي وإخوتي الصغار. أثناء سعينا للهرب... كنا

نمشي بهدوء ولا نصدر صوتا حتى لا يسمعنا الدواشع، وعندما صرنا قريبين جدا من الطريق الرئيسية، اعترضتنا كومة من التراب في الشارع لم نعلم أن تحتها لغم، وكان علينا عبورها لكن ما إن حاول أخي تخطيها حتى انفجرت. فقدنا ذلك اليوم ثلاثا من أفراد عائلتنا... زوجتي لم تحتمل فقدان ابننا الأكبر وفقدت أبي وأخا لي فلم يكن أمامنا خيار سوى العودة»

سألته زهراء: «أهكذا أصبت؟»

هز رأسه نافيا ونظره سارح في الفراغ: «وقعت الضربة، التي شنتها قوات التحالف، على الساعة السابعة مساء، الجميع قُتلوا تقريبا... أُغمي علي. عندما أفقت سمعت ابني يصرخ طالبا النجدة، وكان الدم يتدفق من أذنيه. ولم نكن نستطيع أن نرى شيئا. ساد صمت كامل باستثناء هدير الطائرات التي تحوم فوقنا. وفي الصباح، انتشلنا الجثث، واحدا تلو الآخر، الأصعب كان العثور على جثة طفلتي الصغيرة... كانت صغيرة جدا، لم نجدها... لم نستطع انتشالها... نحتاج إلى رافعة كبيرة الحجم أو... لا أعرف... الأنقاض ثقيلة»

خيم الصمت للحظات، وطبطبت العجوز على ظهر الرجل الذي بكى بحرقة. شعرت زهراء أنها ارتكبت خطأ بصعودها إلى هنا، دق قلبها بقوة مرتعبا وزاد من الضيق الذي في صدرها ثم أمسكت العجوز بيد الشابة: «وهذه عنان، لم تكن

قد أكملت خمسة عشر عاما حين ترملت» ثم أكملت بصوت كالنواح: «الله لا يسامحهم على هذه الفعلة بالذات» سألتها زهراء: «أتقصدين جيش التحالف؟»

– «الدواشع» أجاب أبو راشد بنبرة واطئة غاضبة.

وعقبت العجوز: «دخل الدواشع فتبعتهم الويلات، القتل بالجملة... القصف... المجاعة»

تبادل كل من زهراء وحسين نظرة سريعة ثم سألت كالهمس متوجسة من سماع الإجابة: «ماذا حدث بالضبط؟»

أجاب أبو راشد: «بالأيام الأولى عندما سيطر التنظيم على مدينتنا، قرر أن يجمع كل شباب الشيعة الذي يعيشون بالمنطقة. كان عددهم تقريبا ثمانين شابا، لم يتجاوز عمر أكبرهم الأربعين. تم أخذهم في شاحنتين صغيرتين كالشاحنات التي نستخدمها لنقل البضائع في السوق، شاحنات بصناديق مفتوحة. رأيت كيف حمّلوهم، لأن عددهم كان كبيرا فقد تم رميهم فوق بعض على سطح العربة، أنا والله لما أذهب للسوق لأشحن البطاطا والبصل لا أفعل هذا... لا أفعل هذا ببطاطا وبصل فما عساكم تقولون عن بني آدم. لا أعرف كيف استطاعوا أن يقوموا بهذا ببشر مثلهم، شحنوهم كبضاعة فاسدة»

قاطعته العجوز مفسرة: «أخذوا أبو راشد وعددا من رجال البلدة أيضا ليشهدوا، كانت أكثر الأيام السوداء التي مرت على حارتنا»

وافقها الرجل وأكمل: «لما وصلوا إلى منطقة ريحا القاحلة التي تقع على طريق حاما تم جر الشباب في صف طويل. أذكر أن كل شاب بالصف رُبطت يداه خلفه وجعلوه ينحني إلى الأمام حتى يصير وجهه في مستوى أسفل ظهر الذي قبله» ثم قال وقد صار يحرك يديه بعصبية أكبر: «بعدما صففوهم أمام حفرة كبيرة تم إعدامهم بالرصاص لترتمي الجثث فوق بعضها في القبر الجماعي» فوضع يده على وجهه يمسح جبينه حين قال: «أجبرونا على وضع التراب فوقهم، كان هناك كثير من شباب الحارة، منهم من درسنا معا وأكلنا معا. لم أوافق بالبداية لكنه أجبرني، ذلك الداشعي، على الاستمرار»

قالت العجوز: «أعلم عمن تتحدث، صورته لا تزال مرسومة بين عيني هنا، كانت له عينا شيطان ذلك المسمى أبا يزيد»

ثم حل صمت قاطع.

لم ترفع الصبية ناظريها لتر وجوههم، إنهم مخطئون، هذا ما رددته في داخلها. العم أبو يزيد لا يقتل العزل، وغادرت متحججة بأنها سيكملون المقابلة في وقت لاحق.

كان حسين في أثرها حين عادت إلى غرفة الجلوس فقالت: «هل هذا حقيقي؟»

– «إنها الحرب» كانت إجابته القصيرة قاسية وغير كافية. اختلس نظرة بحذر من ستار النافذة ثم قال: «لقد اقترب المغيب» لم يبدو عليه التأثر بما سمع، عليها أن تكون مثله لكنها قالت للتأكد: «وماذا عن الإعدام الجماعي؟ لا يمكن قتل العزل هكذا، العم أبو يزيد دائما يؤكد على عدم أذية العوام»

أدار وجهه جانبا: «أتفهم ما فعله فأغلب الظن كان مضطرا» لم تقتنع بإجابته فحاول الشرح قائلا: «إن هؤلاء مرتدون، ما نسعى إليه في دولة الخلافة هو تحريرهم من عبادة الطاغوت ومن العيش في ظلام الجاهلية لكن كانوا يساندون النظام النُّصيري الملحد»

– «هذا... هذا غير كاف»

فدنا منها وقال بلهجة آمرة: «يجب الغلظة والشدة في مواجهة المنافقين، فإن لم نقتل أولئك الرجال فكانوا سيحملون السلاح ويذبحوننا» لم تلاحظ يوما هذه النظرة في عينيه، يمكن داخلها حقد متوار... وظلال؟

– «أتقول أن نذبحهم قبل أن يذبحونا؟ هل هذا هو مسوغك؟»

تنهد وقد انتابه صداع من هذا الجدال وقال: «لهذا النساء لا تفهمن الحروب»

كان قد نقر على وتر حساس، فردت بنبرة متألمة: «حقا؟ ما الذي تغير؟ لقد كنا رفيقين، فقط لأني امرأة لم أعد أفهم شيئا في القتال؟»

– «ليس هذا ما قصدته» وتنشق ثم أفضى ما لديه: «المرأة لها وضعها الخاص لكنك تتجاهلين ذلك، ترمين بحالك وسط جنود لا يرحمون، ماذا إن كان جيش التحرير قد فعلوا بك شيئا لا تحمد عقباه» وأشار بيده مشمئزا

لم تصدق أن هذا لا يزال يزعجه، أجابت: «لكنني لم أسمح لهم»

– «إن هذه مشكلتك، إنك لا تدركين حتى حجم الخطر. انظري إلى نفسك، إنك حتى لا تغطين شعرك، إنك حتى لا تدركين ما عليك من واجبات، تريدين الجهاد هذا أمر عظيم لكن لا تنسي الشرع»

– «يا الله، نحن في حال وأنت تتحدث في هذا الشأن؟» ثم ابتلعت غصتها، كان عليها ألا تحيد عن هدفها فعندما ستلتقي العم أبا يزيد ستسأله بنفسها عن حقيقة ما حدث في هذه المدينة وقالت: «حسنا دعنا نغادر، فهذا أفضل» وتوجهت

نحو خزانة الأحذية وفتحتها، كان وجه المخبر مغطى بكيس أسود وساكنا كأنه جثة فتحققت من أنه لا يزال يتنفس.

قال حسين الذي تبعها: «سيشكل عائقا لنا، فلنقضي عليه ولننهي هذه المهزلة»

فردت محاولة ضبط أعصابها: «كلا، فنحن نحتاجه لمعرفة مكان القائد لإعادة عملية تحرير الغراب»

فرفع حاجبه متسائلا وقال: «الأسدي سيقضي علينا قبل أن ننفذ أية عملية. علينا الرحيل»

فردت مستنكرة: «ماذا تقصد؟ أنترك رفاقنا في ذلك الجحيم؟»

وأطلق شتائم متتابعة ثم وأجاب غاضبا: «لماذا لا تفهمين؟ عندما هاجمت الأسدي فقد وقعت عقدا للهرب منه مدى الحياة»

– «هذا لا يهم، لدينا القدرة لنتجاوزه، سأتصدى لذلك الخائن بنفسي، بسببه رفاقنا والقائد في السجون، لقد خانهم في المعركة، أنا متأكدة من ذلك»

فصاح بأعلى نبرة سمعتها منه: «بل العكس» حدقت إليه متسائلة، مسح وجهه وأكمل بنبرة أوطأ متألما: «أبو يزيد من خاننا، كان يبيعنا بالجملة للمعارضة، على مدى سنوات»

– «ماذا تقول؟ هل هذا ما حشى الأسدي به رأسك؟»

– «بل من أنا من أخبرت الأسدي» فخرست أما هو أكمل: «في المعركة الأخيرة اتضح لي كل شيء، لقد مات عديد من رفاقي وهم يتبعون أبا يزيد. معركة شورا... لقد كان السبب، كان هو من سمح لجنود المعارضة بالتسلل إلى مخيم الفاروق»

هزت رأسها: «كلا، أنت تكذب»

– «لهذا لم أخبرك، أعلم أنه بمثابة الأب لك. لقد كنت بحق أريد مساعدتك في إخراجه من السجن لكن بعدما تعقدت الأوضاع» وهز راحتيه: «الأمر لا يستحق»

تركته وغادرت الحجرة نحو النافذة غير مصدقة، العم لن يفعل شيئا كهذا أبدا، العم ليس خائنا أو مخبرا وضيعا، كان الوحيد الذي أحن على طفلة مثلها، طفلة مشوهة. ستعود وتحرره ثم سيرحلان بعيدا عن هذا الخراب ثم قالت بصوت مرتفع: «الرحيل إلى أبعد مكان»...

****

انتظر سامي حتى انتهيا من جدالهما تاركين باب الخزانة مفتوحا.

لم يترك رأس الحبل من يده لحظة وقد خلق فجوة بين لفاته وذراعيه بملأ الرئتين بالهواء عبر عملية الشهيق والزفير عدة مرات إلى أن أحس بارتخائه. كان حسين واقفا على بعد خطوات وقد ولاه ظهره، فأزال الكيس الأسود لتتوضح له الرؤية أكثر، كان الشاب مستسلما لعواطفه الصبيانية وقد اجتاحه شعور بالذنب بكسر خاطر حبيبته.

فك سامي الحبل بهدوء وربط كل طرف منه في يد وتسلل خلفه، أطبق على عنقه وضربه لركبته في نفس الوقت مجبرا إياه على الركوع. حاول حسين إبعاده بمرفقيه، لكن هذا لم يمنع سامي بتركيز كل طاقته على الحبل إلى أن ارتمى الإرهابي على الأرض بعد نصف دقيقة. أخذ سلاحه وأيضا كل ذخيرته ثم جره إلى الخزانة مكبَّلا وأقفل عليه.

فكر مليا فيما حدث بينما كان عالقا في عتمة الخزانة، قوة المادة المخيفة؛ فقطعة صغيرة منها خلفت انفجار قد يعادل طُنين من تي إن تي، وشكلها الكريستالي شديد الصلابة يوحيان بأنها صنعت بتقنية جد متطورة. والأمر الآخر الذي أرَّقه، كيفية تفعليها، فالسلاح وحده لا يعني شيئا من دون مستخدمه. وارتبك أكثر حين أدرك أن أبا يزيد لم ينو تسليمه المادة من الأساس، فقد كان سامي سيتفحص ما يوجد في العينة فور استلامها مما ستفاجئه بإصابته بالحروق التي

لازالت تنغز جلده في حين أن الفتاة يمكنها التحكم بها بسهولة وهذا سيجعله تحت رحمتها.

كان هناك أمامه خيار تشغيل خط الطوارئ ليستطيع الخروج بأمان لكن هذا عنى أنه قبل الفشل في مهمته فربط قماشا على يده المصابة فالتجأ إلى الخيار الثاني.

راقب بهدوء زهراء وهي تقضم أظافرها، كانت غير منتبهة وهي تنظر نحو الأرض بوجه عابس. تفاجأت برؤيته يصوب السلاح نحوها وقال ساخرا: «أظنه حان وقت تبادل الأدوار من جديد» حاولت مناداة رفيقها فقاطعها: «لا تتعبي نفسك»

– «حسين... حسين... أقتلته أيها اللقيط؟»

– «لا، فلست قاتلا مثلك. لا تقلق، إنه في مكان يليق به» حدجته بنظرات كوحش أصيب ويتحين الفرصة للإفلات من قبضة صياده، فهي من دون سلاح لا شيء. حطم هاتفها، فلن يرتكب نفس الخطأ وقيد يديها إلى الطاولة سالبا إياها المسدس والعلبة. لم يكن هناك وجود للاسم الذي طلبه فتأكدت له نية أبي يزيد ذاك فقد كان أذكى مما يبدو عليه.

ارتدى قفازه الجلدي قبل أن يلمس المادة هذه المرة فلم تحرقه ثم حملها برفق بين أصابعه وقد ظهر معطى جديد حول مهمته، إذ سيكون في حاجة إلى المقاتل المستخدم أيضا لفهم

السلاح أكثر، وتمعن في الفتاة قائلا: «ما رأيك أن نبدأ صفحة جديدة، آنسة نيسان؟ يمكننا التعاون معا بدلا كل هذه المناورات والمشاكل»

ابتسمت ساخرة وأجابت: «نتعاون؟ إنك تحلم فلن أتعاون مع زربول بن صرماية مثلك»

لم يفهم الشتيمة وعلق: «لديك ألفاظ مميزة» وعقد ذراعيه واضعا رجلا على رجل: «ما رأيك باستعمال عقلك قليلا وتمحيص خياراتك أولا، فأنت ستحتاجين طريقة للهرب من زميلكم الأسدي كما أن أبا يزيد لم يعد في حاجة لمساعدتك بما أنه خائن حسب ما فهمته من جدالك مع حبيبك، الذي بالمناسبة بدا أنه مفطور القلب»

زمت شفتيها وغمغمت: «العم ليس خائنا»

ما كشفه حسين أوضح لي سامي بضعة الأشياء، قال: «لقد قابلته ورفض أن أساعده في الخروج من السجن. كنت مخطئا في تقديري؛ لم يكن ينتظر مساعدتكم بل تدخل المعارضة من أجله، تعجبني طريقة تفكيره، فبالتأكيد لن يعتمد على...» وألقى نظرة ليستفزها

احمرت عيناها وصاحت: «هذا كذب في كذب»

– «ليس لي مصلحة في الكذب عليك، أيضا فكري في الأمر بمنطقية، إذا كان أبو يزيد مقاتلا يجيد استخدام السلاح الشبح فلما لم يستخدمه لتحرير نفسه وهو يستطيع الحصول عليها بسهولة؟ إذا تعاونت معي فمغادرة البلاد لن تكون أمرا عسيرا وستحصلين...» وبتر كلامه حينما نزلت دمعة على خدها الأيمن، كمشت الفتاة قبضتها على الملابس وتمتمت مدركة أخيرا: «من الأساس العم لم ينو الخروج أبدا...» ثم مسحت الدمعة المتسللة بسرعة وعضت على شفتيها كطفلة على وشك الانفجار بالبكاء. تنهد سامي تاركا لها وقتا لتهدأ، كان لا يستوعب لم ينجر معظم الناس خلف عواطفهم من دون تفكير، كرفيقها الذي أوقع نفسه في المتاعب من أجلها أو هي التي تحاول بكل هذا الجهد من أجل شخص مجرم كأبي يزيد.

وقال بنبرة لطيفة مصطنعة: «إذن، ما رأيك آنسة زهراء؟ يمكننا عقد صفقة رابحة لكلينا»

ردت في غضب: «تقيدني وتهددني بالسلاح، لا، وقبل هذا جعلتني تحت رحمة ذلك الثور الأصلع وتريد عقد صفقة؟»

– «تقصدين اللواء شفيق، إنه المذنب في تعذيبه لك، فقد خالف القوانين. لكن لننظر على أنه تعادل»

أطلقت ضحكة مخبولة وقالت: «إنه تعادل بالنسبة لك، فأنت مجرد وغد بن حرام»

كان يكره هذه الكلمة التي تكررت على مسامعه طوال سنوات، وغد ولقيط وغيرها... رد بنبرة هادئة لكن حازمة: «عليك أن تعي أنك خسرت اللعبة. إذا أعدتك إلى شفيق، هذه المرة لن تنجي بحياتك، سيقوم بتصفية انتحارية لا تستطيع حتى أن تبوح باسمها الحقيقي علنا، بل أراهن بأنك لا تعرفين اسمك أو نسبك أساسا»

انسكبت الدموع من عينيها تباعا فتنفس الصعداء لأنه كسر عزيمتها لكنها تنشقت مانعة المخاط من النزول وقالت: «أتعلم ما مشكلتك؟ أنك تظن نفسك شديد الذكاء»

نهضت من مكانها مكبلة اليدين، فقال: «حقا؟ تريدين المقاومة، وفي وضع كهذا؟» أخذت تستنجد بأعلى صوتها: «ساعدوني!» فابتسم ساخرا: «إذن أهذا ما تودين فعله آنسة زهراء؟»

– «ليس تماما» ونظر من حوله خوفا أنها ترغب في مناداة عناصر من الجهاديين لا يعلم بأمرهم.

استمرت بالصراخ فحاول إسكاتها بإغلاق فمها قائلا: «إذا كنت تريدين أن تجلبي رفاقك إلى هنا، فهذا لن يفيدك» عضت يده ككلب مسعور وأبعدت نفسها منه: «من قال ذلك؟» ثم أخذت تصرخ ثانية، وقد زعزعت الطاولة الثقيلة معها فجرها

بقوة إلى الأسفل وأسقطها أرضا ثم وضع ركبته على عنقها ليجعلها تصمت.

سمع خطوات قادمة من الدرج فجهز سلاحه وما لبث أن رأى رجلا يحمل بندقية ووراءه عجوز في يدها عصا تحاول الجري بخطوات متعرجة، وأطفال؟

صاحت العجوز: «آنسة صحافية، ما الذي يحصل؟»

تملصت زهراء منه صائحة وهي ترتجف من الخوف: «هذا الشاب حاول أن... أن يلمسني» وأجهشت بالبكاء

فهب الرجل باتجاهه ملوحا ببندقيته وصاح: «الله يلعن أبوك يا جحش، ألا تخجل من نفسك؟»

سارعت المرأة العجوز لتواسيها وقد رأى الجميع يديها المكبلتين والسلاح بيد سامي الذي فهم فيما أوقعته الآن، لقد صار المجرم، ومجرما من النوع الذي يمقته أكثر من أي شيء.

رفع سامي يديه قائلا: «صدقني، الأمر ليس كما تقول» ثم نظر إليها فابتسمت له ابتسامة ماكرة من وراء كتف العجوز الذي تتكئ عليه، وكأنه فهم ما تريد أن تقول له، بكل بساطة لا تحتاج إلى سلاح لتوقع به. نظر إلى الوجوه التي تحدجه باشمئزاز وعيون الأطفال المتخوفة، فتتشق غضبا فحتى وإن

قال الحقيقة ودافع عن نفسه، لن تصدقه هذه العيون ورفع يده مستسلما وقد فشل في المهمة.

****

التهبت السماء عند المغيب وسرحت الظلال على المباني فغرقت في حداد على أشباهها الذين أضحوا أطلالا. غادرت الصبية منزل العجوز في غفلة من الحاضرين الذين انشغلوا بمحاكمة سامي بعدما انتشلت العلبة والسلاح وفكت وثاق رفيقها. سارا نحو مخرج المدينة الشرقي، كانت خطواتها أثقل مما تعودت عليه لذا كان حسين يتوقف بين الحين والآخر منتظرا أن تلحق به وتساءلت إن كان سيبقى في انتظارها لو صارحته بشعورها. بالطبع سيرحل أيضا، فجميعهم يرحلون.

لم تهتم يوما بالشعارات ولا بالمثاليات، فهؤلاء يتغنون بدولة الخلافة وأولئك يحلمون بدولة الحرية والديموقراطية، لكنها لم تر أيا منهما بحياتها القصيرة. كل ما رغبت به هو مكان تنتمي إليه وقد وجدته مع العم أبي يزيد أو هذا ما اعتقدته، فقد أدركت أنها لا تعرف عنه أي شيء، كان كل شيء في حياتها وفجأة هي الشيء الضئيل في حياته. كلا، العم فعل الكثير من

أجلي... لقد اعتنى بيتيمة من دون شروط أما الأم زهراء فلم تكن سوى مجنونة، لا تذكريها الآن... لا تفعلي...

طقطق حسين بإصبعه ليبطئا من تقدمهما فقد لمح حاجزا تابعا لجيش التحالف. بعد التحقق، وجداه خاليا إلا من بعض الأكياس الرملية. اعتبر حسين نفسيهما محظوظين فلن يضطرا للالتفاف حوله لكن الصبية شعرت بشيء مريب. بعد لحظة ومن بين الأزقة، انسلت مجموعة من جنود التحالف، فاختبآ في زاوية أحد المباني، ثم تبعتها مجموعة أخرى، جمعيهم يخلون المدينة تباعا بسرية تامة. همس حسين: «لما يغادرون أرض المعركة، هل استسلموا بالفعل؟»

اتجه جندي وحيد ليفرغ متانته بالقرب منهما، من دون تبادل كلمات جهز حسين الكلاش وذهب يمينا أما هي أمسكت بمسدسها وتحركت في الاتجاه الآخر. أصابت الجندي في الفخذ وضغطت بقدمها على رأسه إلى أن لامس الأرض وهو يترجى بلغته الأم.

استجوبه حسين الذي كان يجيد بعضا من اللغة الإنجليزية ثم قال لها: «لم أفهم تماما، يذكر شيئا عن الأرض المحروقة» وتمتم بالمصطلح الذي لم يبدو غريبا عنه وتمتم: «تبا أظنه يقصد 'سياسة الأرض المحروقة'»

– «وماذا يعني هذا؟»

أعاد حسين سؤال الجندي الذي فتح ذراعيه ليفهمه، فتمتم هلعا: «الليلة... إنهم يسعون لقصف شامل، إنهم يرغبون في تدمير كل شيء حتى لا يستطيع المقاتلون الاختباء بعد الآن أو الاستفادة من أي مورد كان» وألقى نظرة وجلة حزنى حول المكان، فقد كان رفاقه يخسرون ثم أنهى حياة الجندي ساخطا.

أكملا طريقهما في خطوات أسرع نحو الطريق الآمن، كانت معرة العرب آخر أهم معاقل التنظيم لذا يريد جيش التحالف حسم الأمر بقصف شامل لينهي الحرب. تتبعت الصبية مسار الدم السائل لهاربين حصدتهم الألغام، لم تستشعر يوما أنها دماء أناس كانوا أحياء قبل سماع قصة ذلك العامي، فهزت رأسها كيلا تتذكر، لكن...سيقصفون كل شيء من دون تمييز، ما تبقى من الحارات والبيوت والبشر سيتوارى تحت الحجر والتراب. تغلغلت روائح المكان في داخلها، كان نواح الأرواح أشد صخبا وعويلا من أي وقت مضى... يا ترى هل كان قلبها متحجرا هكذا دائما؟

نظرت خلفها متسائلة عما سيحدث للعجوز وجيرانها، هل يمكنهم النجاة أم ستكون آخر من سمع قصصهم؟ لقد وثقوا بشخص مثلها بسذاجة ورغم زيف ادعائها هبوا لنجدتها فخجلت من نفسها. توقفت عن المسير قائلة: «لا أعتقد أني أستطيع الذهاب هكذا، علي تنبيه العجوز ومن معها» تعلم أن

تنبيههم لن يشكل فرقا، فالقصف الليلة ومجموعة كبيرة تلك لن تستطيع الهرب دون أن يلاحظها أحد.

فصاح حسين ولاح بيده: «وماذا يمكنك صنعه؟ لقد انتهى كل شيء» كان خائب الأمل، يمشي منحني الظهر وقد ضاع مسعاه الذي كان كل حياته. «هيا اسرعي سنرحل من هنا، لقد انتهى... كل شيء انتهى»

هيا، أسرعي سنرحل من هذه الأرض النحسة، لقد... خدعونا»

لم تحرك ساكنا وقد بدا لها كل شيء أوضح مما مضى وقالت: «فلترحل إذا شئت، أما أنا فلا يسعني ذلك»

التفت إليها وقد انحنى حاجباه عند عقدة جبينه: «لماذا؟ هذه لم تعد أرضنا، في أفغانيا فرص أكبر، يمكننا أن نبدأ من جديد هناك»

– «وتلك ليس وطننا أيضا، هذه الأرض هي كل ما نعرف» خربة مقسمة لدرجات من الأحمر والرمادي.

– «ألم نتفق أن نرحل معا؟»

– «بصفتي ماذا؟»

– «زوجتي»

لقد عايشت كثيرا من زوجات المقاتلين، تلك الحياة الخنوع لن تشبع رغبتها في الحياة، لطالما اعتبرت حسينا أخا ورفيقا وفيا وتريد أن تبقى كنِد له وليست تابعته. ردت وقد قررت ألا تخفي شيئا: «لا أذكر أني وافقت على عرضك، الحقيقة لقد ماطلت لكي تساعدني في تحرير العم لا غير»

احمر وجهه وقد ازداد غضبه: «تقصدين أنك استغليت الموقف، أليس كذلك؟» وأشاح بوجهه جانبا وقال مصدوما: «لقد أتيت من أجلك، بل سأبذل حياتي من أجلك»

– «أعلم لأننا... رفاق؟» ستبذل حياتها من أجله أيضا إن احتاجها

– «رفيق؟ هل هذا كل ما أمثله لك؟» واقترب أكثر فأشاحت بنظرها وقد استشعرت بحرقة الغضب والخذلان ثم استدار نحو تجاه طريق الخروج وقال: «أتعلمين؟ افعلي ما تشائين» أما هي سارت في الاتجاه المعاكس فقد توقعت النتيجة من قبل، فالجميع يرحلون...

****

وصلت مقطوعة الأنفاس فقد عادت أدراجها بأسرع ما يمكنها. دلفت المنزل خلسة وألقت نظرة حول المكان. لمحت

سامي مقيدا إلى كرسي في قاعة الجلوس ومحافظا على هدوء تعابيره المصطنعة رغم موقفه أما المجموعة حوله فقد كبرت لتشمل رجلا كهلا يدعونه بمختار الحي وفتى يرافقه يعبث بهاتفه في الزاوية، أغلب الظن ابنه للشبه الكبير بينهما. كانوا يناقشون حول ما سيفعلونه بالشاب الأشقر الذي تعب من الدفاع عن نفسه. لم تصدق أنهم قضوا ساعتين في تأديبه وتيقنت بأنها لم تخطئ في العودة من أجلهم.

أظهرت زهراء نفسها واعتذرت لاختفائها من دون سابق إنذار. فقالت العجوز لسامي موبخة إياه: «كنت تردد إنها هربت ها هي الآن أمامك»

أطلق تنهيدة طويلة ورد: «إنها بخير كما ترين، فهل يمكنني المغادرة الآن؟»

اتكأ أبو راشد على بندقيته الطويلة وصاح في وجهه: «وهل تظن أن دخول الحمام كالخروج منه، سنعيد تربيتك إن لزم الأمر»

هدّأ المختار من روعه. كان رجلا طويل القامة ممتلئ الجسم، يمتلك أنفا أفطسا عريضا وتطوق وجهه لحية فقهاء المساجد، يرتدي عباءة شحمية اللون وعمامة بيضاء. وجه الحديث لسامي: «الشرف هو كل ما تملكه المرأة وعليك تحمل مسؤولية أفعالك يا بني»

رغبت بشدة مشاهدة اللقيط الخسيس وهو يتعرض لمزيد من الذل لكنها قاطعت المحاكمة قائلة على عجل: «يا جماعة، لنترك هذا الموضوع لوقت لاحق، فهناك قصف وشيك هذه الليلة»

سارع أبو راشد إلى الرد وهو يدور في مكانه في عصبية: «سيقصفون مواقع للدواشع ثانية؟ فلنرجو ألا يضربوا منازل المدنيين هذه المرة أيضا»

قاطعته مصححة: «كلا، سيقصفون كل شيء عن بكرة أبيه»

صمت الجميع للحظة واجتاح القلق والتوتر ملامحهم المتخوفة من القادم القريب. سألها المختار: «أأمتأكدة؟ الليلة؟»

– «أجل. إنهم يسعون ليباغتوا المسلحين بقصف شامل، فالجنود قد أخلوا المدينة بالفعل لذا سيبدأ القصف في أية دقيقة الآن»

سألت العجوز: «والآن ما العمل يا مختار؟»

أجاب: «إذا كان هذا قصفا شاملا فهذا يعني أنه اليوم الأخير، فلندعو الله بأن ينجينا منه» وقام من مكانه موظبا عمامته: «سأحذر أهل الحارة بنفسي ببوق المسجد»

– «انتظر!» فتوقف حين نطق كل من زهراء وسامي بالكلمة بنفس التوقيت.

شرح سامي: «لا أظنها فكرة سديدة، هكذا سيعرف الجهاديون بالأمر وبما أنهم محاصرين فسيأخذون المدنيين رهائن والأسوأ أن يقتلوهم للتنكيل فقط» للأسف كان ما قاله صحيحا فالتنظيم يضم أفرادا كثرا من هذا النوع: «من الأفضل أن نجد طريقة نحذر بها الجميع من دون أن نثير الانتباه» احتار أهل الحي فيما بينهم فأضاف الأشقر: «أعتقد أن الأغلبية تمتلك هاتفا»

أجاب المختار: «لكن الاتصالات مقطوعة»

– «لا بأس، أستطيع تدبر حل، وأيضا كم بيتا يتوفر على ملجأ أو قبو آمن في الحارة؟»

– «منزل أم عبدو، وأيضا منزل عائلة بدران لكنه هوى بضربة جوية قبل شهر»

عقبت العجوز: «هذا يعني إنه لم يكن ملجأ مناسبا من البداية، ماذا عن منزل عسول يملكون قبوا واسعا؟»

رد المختار: «لقد احتله المسلحون وكذلك بيت أبو يمان»

فسأله سامي: «وكم يبلغ تعداد أهل الحارة المتبقين؟»

استغرقوا وقتا في تعداد وتذكر من بقي حيا ومن لم يستطع الخروج، واتضح أن العدد أزيد من سبعين شخصا. قال سامي: «يجب ألا يتجاوز عدد الأشخاص في ملجأ واحد الخمسين، لكن بما أنه الوحيد المتوفر فيمكن تأمين البيت بطرق بسيطة وأيضا... هل يمكنكم فك وثاقي؟»

انتظر الجميع موافقة زهراء فنظرت نحو سامي الذي بادلها نفس الفكرة متفقين على هدنة غير منطوقة، فقد ينتهي الأمر بكليهما بأن يدفنا تحت الأنقاض مع بقية أهل الحارة، وقالت: «لا بأس، الأولوية التعاون معا للنجاة إلى حين انتهاء القصف»

عندما تحررت يداه رتب قميصه ونفض عنه الغبار ثم مسح وجهه بمنديل مبلل ثم أخذ يضغط بضعة أزرار على ساعته الرقمية فيما الباقون يراقبون باهتمام. وبعد بضعة دقائق قال للمختار: «سأرسل للفتى الذي بجانبك قائمة السكان الباقين في الحارة، أريدك أن تتحقق من كل فرد قبل أن يتم إرسال رسالة التنبيه» تساءلت كيف يمكنه الاتصال بساعته في حين أن الاتصالات مقطوعة.

ووزع بعد ذلك الأدوار على كل فرد من المجموعة؛ تولى هو برفقة المختار إجلاء السكان نحو المنزل، ووكّل للعجوز وعنان، الأرملة التي ترافقها، وضع شريط لاصق على زجاج

النوافذ والأبواب على شكل علامة إكس لمنع تطاير الزجاج في حال تحطمه، وأمرهم بترك نافذة مفتوحة في كل غرفة لمرور التيار الهوائي عند ارتفاع الضغط الناتج في حالة الانفجار. أما زهراء فقد تكلفت بإشعال حرائق صغيرة في أماكن بعيدة عن البناء لخلق جو دخاني تمويهي وجذب القنابل الموجهة حراريا.

تعاون بعض الرجال على تقوية الأعمدة التي أصيبت في ضربة جوية سابقة فسأل المختار سامي: «ما رأيك يا بني؟ هل سيصمد البناء لهذه الليلة؟»

أجاب كأنه خبير في مجاله: «إنه ليس جيدا كفاية، احتمالية صموده ضعيفة إن أصابته ضربات متتالية» ثم مضى يتحقق من السلم الذي يؤدي إلى الملجأ المجهز فيما حاول المختار الاتصال ببعض الأحياء المجاورة لتنبيههم أيضا.

ارتفع هدير طائرات من بعيد، فتفرق الجمع داخل الملجأ الذي كان عبارة عن قبو نصف مبني بحواشي اسمنتية معدة للجلوس، مفترشة بحصر قديمة. يضيئه مصباح وحيد معلق في الزاوية الداخلية. لم يستطيعوا تخمين المدة التي سيستغرقها اجتياح الطائرات للحارة فأحضر كل واحد منهم أقنية ماء وبطاريات وبعض المعلبات التي توفرت لديهم وأغطية أيضا.

اختارت زهراء بقعة قرب السلم وكذلك سامي الذي عقد ذراعيه وبدا شاحبا أكثر من المعتاد فقالت: «يا لحظك العاثر، تصرفك الخسيس انقلب عليك. كان يمكنك أن تستخدم سلاحك ضدهم والإفلات منهم» فبمواجهته توضح لها أن مهاراته في القتال لا بأس بها ومجموعة من أهل الحارة لن تشكل عائقا له.

أجاب بتعجرف: «لن ألوح بسلاحي اتجاه المدنيين فهذه جريمة، فجهلهم بشناعة أفعالك يشفع لهم» أطلقت نخيرا ساخرا فهي متأكدة من أنه أسوأ منها بكثير، لكن بالرغم من وضاعته أثبت أنه مفيد... بعض الشيء.

اقتربت الأرملة الصغيرة منهما وسألتهما عن المختار، كانت في حاجته لإقناع العجوز التي رفضت ترك جثمان ابنها ثم مشت الفتاة ببطء شديد، فقد كانت مرتعبة من هدير الطائرات لذا رافقتها زهراء لتبحث عنه. ووجدتا الرجل الكهل لا يزال في قاعة الجلوس ينتظر بعض العوائل التي لم يسعفها الوقت للجوء إلى هنا.

بالطابق الأعلى، تفعم الهواء بعبير أعواد البخور المحترقة ومزيج حديث من الأعشاب نُثر على الجثمان لتثبيط رائحته. أمسكت العجوز مصحفا بين يديها تترحم على الميت بقراءة

سورة ياسين، فانتظروا عند عتبة الباب فالمختار لم يشأ مقاطعتها.

علا صوت العجوز الأجش وهي تردد: 'إنا نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين' وأعادت الآية فاختنقت الكلمات بعبراتها.

تمتم المختار بصدق الله العظيم وقال: «وجِّدي الله يا أم عبدو، عليك الاحتماء داخل الملجأ كباقي الخلق»

– «اذهبوا أنتم، أنا باقية في بيتي ومع ابني» وعادت تكمل السورة

تدخلت عنان: «بالله عليك يا خالتي، لن أنزل من دونك»

فرفعت سبابتها من دون أن تنظر إليها: «والله إن لم تنزلي سأسخط عليك دنيا وآخرة»

قطبت الفتاة جبينها في حيرة فعقب المختار: «إذن سنحملك معا ونأخذك للملجأ غصبا عنك»

لوت شفتيها وقالت: «ألم تقم الثورة من أجل أن يكون كل مرء حر في نفسه؟ وهذا ما أريده»

اختلطت ضحكة مهمومة في فم الكهل وعلق: «ما بال عنادك تضاعف مع كبر سنك؟» وأكمل بنبرة ألطف: «لا شيء يهوِّن

من فقدان الابن لكن الأحياء أولى من الأموات، وما ابتلاء رب العالمين لعبده إلا من شدة محبته له»

تنهدت وقالت رافعة بصرها لصورة في الجدار غير واضحة المعالم لعتمة المكان: «وهل هو ابن واحد؟ الأول اعتقله النظام ومات بالسجون معذبا وذليلا. علمت بمقتله عندما أروني جثته في الصور التي انتشرت على قنوات التلفاز وقد خطوا رقما على جبينه. فلذة كبدي كان مجرد رقم بالنسبة لمعذبيه حتى جثمانه استكثروه علي ولا أدري ما الذي فعلوه به. الثاني ذبحه الدواشع لأنه رفض دفع شوية مصاري، كنت أنصحه ألا يكون عنيدا ودفنوه في مقبرة جماعية لا أدري أين» وأخفضت نظرها إلى جثة ابنها الأخير ماسحة ذراعه بحنان: «وهذا الأخير قتله الأجانب، قطعت عهدا على نفسي أن أدفنه بيدي أو أُدفن معه. إذا كُتب لي عمر الليلة، سأدفنه وأزور قبره كل جمعة إلى أن يأخذ الباري روحي»

لم يقدر الكهل على متابعة جدالها وأشار لفتاتين بأن يتركاها. بقيت زهراء لبعض الوقت، تستمع لقراءة العجوز الضعيفة وهي تتهجأ الكلمات الصعبة فتكررها. دنت منها وقالت محاولة إقناعها: «وماذا عن هؤلاء الذين يخافون عليك؟ قد تكونين فقدت أبناءك لكن أهل الحارة لازالوا هنا حاضرين من أجلك»

أمالت العجوز رأسها في تعب وتمتمت: «إنهم أناس طيبون... المساكين. نحن أهل الحارة نشد أزر بعضنا البعض في هذه الأوقات العصيبة، لكن ما إن ينتهي هذا كل سيرحل في طريق... فهل تبقَّى لنا حارة، هل تبقَّى لنا وطن؟» ونظرت إليها بعينيها الملتهبة كجروح مفتوحة: «هذه العجوز الخرفة أمامك لم يبق لها شيء. أبنائي راحوا جميعهم وبيتي ما تبقى منه سيزول، أين سأعيش؟ في المخيمات؟ في بلدان اللجوء؟ لم يعد لي مكان التجئ إليه يا آنسة صحافية، اكتب لي الناس أنه لم يعد لي وطن»

جلست زهراء جانب السرير قرب الجثة الباردة وقالت: «إذن أهذه وطنك؟» لحم متعفن وعظم وأمسكت بيد العجوز التي برزت عروقها تحت الجلد المتغضن: «الوطن يظل شقفة أرض، ما يعطيه اسم وطن هو رائحة عشب وربيع نتربى عليها، هو التراب الذي ينبت منه ما نقتات عليه والمياه التي نرتوي منها»

مسحت العجوز شعرها قائلة: «لم تخطئي يا آنسة صحافية لكن ما يثبت كل هذه الاشياء هو وجودهم، وجود من يسأل عنا حين نمرض، من يبحث عنا حين نضيع، من يشاركنا وجبة دافئة، من قد يضحي بنفسه من أجلنا ومهما أخطأنا نجده في انتظارنا. وجود هؤلاء الناس إلى جانبك هو الوطن

الحقيقي» أخفضت الصبية رأسها في حزن، إذا كان وطنا على معايير العجوز فهي لم يكن لها وطن يوما، لم يبق أحد إلى جانبها طويلا حتى العم رحل أغلب الظن. ضغطت العجوز على يدها: «انهضي يا فتاة واحتمي مع الآخرين ودعي هذه العجوز الخرقاء تحقق رجاءها الوحيد»

عادت إلى الملجأ وأغلقت الباب.

ساد الوجوم والصمت. كلما مر الوقت يعلو هدير الطائرات أكثر وأكثر ويتردد صدى غاراتها التي تقترب منهم. احتوى الملجأ ثمانا وخمسين شخصا، تحلقت كل عائلة حول نفسها وحضنت الأمهات أطفالهن لكي يناموا حتى لا يشعروا بالخوف. سال العرق على الجباه، هناك من دفن وجهه بين يديه وهناك من رفع رأسه للسماء يدعو. أما عنان فقد ضمت ركبتيها بين يديها تبكي على فراق العجوز.

اعترت الصبية مشاعر الذنب فهؤلاء الناس يُقصفون لدخول الدواشع أرضهم، لكن رفاقها أخبروها أنهم أتوا ليحرروا الأرض من النظام الذي قتل شعبه. كانت طفلة عندما اشتعلت الثورة فلم تفهم يوما أسباب هذه الحرب التي كانت جزء من كل ذكرى عاشتها.

هوت قذيفة قريبة أصابت جزء من المنزل فتزعزع السقف من فوقهم واهتزت الجدران ناثرة الغبار الاسمنتي على الأجساد المرتعبة. انفجر أطفال بالبكاء حتى بعض الكبار وتعالت الشهادة بين الألسن. قامت عنان من مكانها بخطوات مرتجفة نحو الباب تنادي: «أم عبدو، يا أم عبدو!» أوقفها المختار: «إلى أين يا ابنتي؟ إلى أين؟ آه منك يا أم عبدو ومن عنادك» وطبطبت امرأة على ظهرها لتهدئها وأجلستها بجانبها.

وبسمل المختار قبل فتح الباب، قام أبو سعد ليرافقه ويحضرا العجوز رغما عنها إلا أن زوجته أمسكته من ذراعه في رجاء وأشارت لأطفالها الهلعين حتى لا يتركهم. فرافقه سامي بما أنه كان الشاب الوحيد ومن دون عائلة ليحميها. سارت زهراء في أثرهما أيضا فلم تعد تحتمل البقاء متسمرة في مكانها.

بالأعلى ارتجف السقف من حرارة القذائف واشتعلت النوافذ بأضواء كفوانيس الأعياد بين ثلوج الركام، تناثرت على السلالم أشلاء من الجدار وما أن صعد المختار نحو الفتحة بمنزل العجوز حتى صاح: «لا إله إلا الله»

كانت العجوز ملقاة على الأرض وقد أصابتها الشظايا من أثر بقايا الانفجار، فغطت الجروح جهتها اليسرى بالكامل، من الوجه والذراع والبطن حتى القدم. هب المختار إليها وقد حصل ما كان يخشاه الجميع.

قال المختار: «علينا أخدها للقبو»

رد سامي: «إذا شئت لكن لا أظنه سيكون أأمن من هنا، فالقصف أشد مما تصورنا»

فتحت العجوز عينيها في وهن ورفعت سبابتها: «إني أراه أيها المختار، إني لأراه...» وارتفع صدرها طالبا الهواء، فقال المختار في رجاء: «هيا قوي نفسك يا أم عبدو، لتودعي ابنك كما ينبغي، أعدك، ستقيمين جنازته وسيدفن بكرامة»

تبسمت العجوز وهزت يدها نحوه: «دعوني... دعوني أستلقي إلى جانبه، دعوني الله يخليكم» حملها المختار رفقة سامي بلطف نحو السرير حيث ترقد جثة ابنها.

أحاطت العجوز بذراعها الجثة الهامدة وتمتمت بحنان: «يامو، يا عيون أمك يا حبيبي» وابتسمت وأكملت وكأنه يحدثها: «وأنا كمان اشتقت لك يا عيوني، ارتاح يا حبيبي ارتاح وسبل عيونك ونام» وأخذت تهدهد له كأم ورضيعها.

كانت الصبية تنظر من خلف ستار الدمع وقد شعرت بقلبها يكاد ينفجر من الحزن، فقبضت على صدرها في حيرة وغضب، لما كل هذا؟ لماذا يرمون بالقذائف عليهم محتفلين بآلامهم وفزعهم؟

وانقضت قذيفة أخرى بشررها عليهم لتصيب الجدار الآخر، ارتمت زهراء إلى الخلف نحو حافة السرير من موجة الانفجار وأصابت شظية ذراعها، شعرت ببرودة قادمة من جانبها الأيسر حيث خبأت العلبة السوداء. بل كانت شديدة البرودة، وتعالى الحسيس الصادر منها شيئا فشيئا، لكن الصبية أمسكت بذراعها في ألم متجاهلة ذلك، لأنها تتوهم فهي ليست الأم زهراء، هي ليست كذلك...

نهض المختار مترنحا ناظرا بخوف إلى ما خلف الجدار المقصوف: «يا رب احميهم، احمي عبادك» أما سامي فأمسك بساعته في رجاء وقد أدرك أن الموت صار قاب قوسين منهم. فلا هنا بالأعلى، ولا في القبو بالأسفل، لا مكان هنا سينجيهم من طائرات تضخ النار عليهم بجنون.

تدلت يد العجوز على كتف الصبية طالبة أن تقترب منها وهمست لها: «إنها تناديك...» اشتد الحسيس وأمسكت الصبية بالعلبة بخوف وقد أضاء ما بداخلها، «إني أراه... جميل ومريح... إني أراه...» لكن الصبية كانت خائفة منه، مرتعبة منه، من حسيسه، من نهمه...

تمتمت: «أنا آسفة، آسفة جدا» توهجت العلبة بضوء ساطع والدم من ذراعها يسيل

وتلمست العجوز الحجر المتوهج وقد ندت شفتها البيضاء عن ابتسامة أخيرة وقالت بلسان ثقيل: «رجائي... ألا تذهب دماء أولادي سدى، خوفي بعد كل هذا الدم... أخبري الناس يا صحافية، هذا الدم... دمنا ودمهم... لن... يضيع»

وسرت المادة الشبح عبر جثتها وزمجر وهج أبيض واشتد أزيز ستار شبحي وتزاحمت صواعقه جاهزة ليكسح ما يجد أمامه... ثم ارتفع مكونا جدارا عاليا يحميهم وأحاط بالمنزلين كقبة زجاجية فضية عالية.

رفع سامي بصره في حيرة وأخذ المختار يتمتم بآيات من القرآن غير مصدق ما تراه عيناه؛ تفتت القذائف كلما لامست محيط الستار وتناثرت كالرماد.

كانت الصبية ممسكة بيد العجوز الباردة في صمت، لم تر يوما الحجر هكذا. فقد كان يشعل اللهيب ويحصد الأرواح من دون تمييز. انتشر رذاذ أبيض متلألئ في الجو ومعه تسللت البرودة إلى الداخل. هدأت الأجواء وسرى سكون في داخلها ولم تعد تشعر بشيء...

ولم تشعر أنها نامت، فعندما فتحت عينيها التمع نور الصباح وعم الهدوء، ثم أخذت الحركة تدب شيئا فشيئا، وأخذ أهل

الحارة ينسلون إلى الخارج واحدا تلو الآخر وجسين من عودة الطيران الحربي إلا أن السماء هدأت أخيرا وتوقف القصف.

ضغطت الصبية على يد العجوز هامسة: «لقد توقف... لقد توقف القصف يا أم...» وبترت عبارتها فقد فارقت الحياة ومال رأسها نحو حضن ابنها. ضغطت على يدها أكثر، باردة متصلبة، وجثت على ركبتيها تتمعن في وجهها المسالم. قال المختار والغصة في صوته: «أنت من السابقين يا إم عبدو ونحن اللاحقون»

في الخارج تعالت التكبيرات والتفت الناس إلى بعضهم بعضا كأنهم يحاولون رؤية من بقي حيا ومن مات، ثم تعانقوا لنجاتهم، فلم يتبق منزل إلا ودك عن آخره، إلا منزل العجوز. فقد وقف كصرح عال بين الحصى وهياكل الإسمنت وأحاط به خط دائري من رذاذ أبيض، عند حدوده هياكل حديدية متفحمة لأجزاء طائرات، تجمع البعض حولها بفضول ورفع أبو سعد صوته قائلا: «إن الله لا ينسى عباده المظلومين» وكبر حامدا إياه.

لم تفهم الصبية ما حدث وهي تحدق بالحديد الذائب الذي يسيل من قطعة طائرة محطمة. داعبت قطرات مطر خفيفة عنقها وانتبهت للسماء الغائمة، فقد توارت الشمس خلف غيوم صيف مفاجئة، كم تمقت هذا الطقس المتقلب.

اقترب سامي قائلا: «أظنك في حاجة لهذا» ومد لها منديلا عندها فقط انتبهت لجرح ذراعها الذي لا يزال ينزف. «إذن أأهذه هي القوة الحقيقية للسلاح الشبح؟»

فخطفت المنديل من يده مجيبة: «لا أعلم عما تتحدث»

– «البقعة رغم صغر مساحتها نجت من القصف بشكل غير منطقي...» ووضع سبابته على ذقنه: «إن كانت المادة وراء ذلك، فقد يعني أن استخدامها بطريقة معينة ستجعل الضربات الجوية والقصف المدفعي بدون معنى أو تأثير، ما رأيك؟»

كان يحاول استنباط معلومات منها لكنها مثله لا تعرف ما الذي حصل كما أنها لا تريد أن تعرف. عقدت المنديل على ذراعها فسقطت منها العلبة السوداء.

ظلت تنظر إليها للحظات من دون أن تلتقطها، ولاحظ سامي ذلك، فقالت له: «يمكنك الحصول عليها» رمقها بارتياب فابتسمت ساخرة: «إنها لك فلم أعد في حاجة إليها» لأن العم لم يكن في حاجة لمساعدتها، «وأيضا... كنت مخطئا فلدي اسم» لقد كان لها أم وأب ومنزل ومذياع يصدح بلحن بطيء عتيق، أعاد إليها لحن التهويدة ليرن من جديد في ذاكرتها، لكن ما الكلمات يا ترى؟ لو أنها تتسلل إليها من حنايا الذاكرة لربما

خطفت من الماضي لمحة من وجوههم الغابرة. «جوري، هذا هو اسمي...»

لم يناديها أحد هكذا منذ زمن، جوري اسم تخلت عنه لأنه اسم طفلة يتيمة واهنة، إنها علي المقاتل وستظل عليا، فهكذا استطاعت النجاة، ثم غادرت المكان عندما بدأ يعج بسيارات الإنقاذ المدني والصحافة وقد اشتد المطر.

****

كفر توما، غرب شمال حلبا أيار X021

أين هي حلبا الشهباء؟ في كل زيارة له تنمحي معالم الحضارة ليحل محلها الخراب. تعجن الخبز وامتزج الدم بماء المطر على الرصيف. انفجرت عبوة ناسفة بين مجموعة من الناس كانوا قد احتشدوا حول سيارة فان مفتوحة الظهر، محملة بالخبز الذي ارتفع ثمنه إلى ستمئة ليرة للربطة الواحدة. احترقت الأرغفة التي توجد على جهة الانفجار وكذلك من وجدوا أنفسهم قربها. تحت المطر، يصبح المشهد الذي يخلفه انفجار المفخخات أكثر تقززا ورعبا. تتموه صنان الأشلاء مع رائحة التراب المبلل فتتضوع نتانة طفيفة تعلق في مسام الأنف لمدة طويلة.

كان التفجير رد فعل انتقامي رخيص للتنظيم بسبب قصف التحالف الأخير. أكمل يزن طريقه متجنبا رؤية جثة المدني المغطاة بغطاء بلاستيكي. ومضى مشيا على الأقدام تاركا سيارته في الشارع الرئيسي رغم أن المصنع القديم يبعد بمئات الأمتار. فقد كان ضائعا ثانية. يسير بين الأزقة إلى أن وجد نفسه عند طريق فرعي يؤدي إلى الحارة الصناعية المهجورة.

وقف منتظرا أمام المصنع متوترا، قبل أن يخرج الحارس قائلا: «يزن عوالمة؟» أماء برأسه إيجابا فأدخله، وسار به نحو مكاتب أصبحت زنازين، وأشار له إلى الزنزانة السابعة.

كان إياد في انتظاره، جالسا خلف القضبان، فقال له من دون مقدمات: «إذن الموعد غدا؟»

عدل يزن نظاراته ذات الإطار الدائري، فقد أراد قول الكثير قبل الإجابة بعد مضي سنة ونصف إلا أنه رد: «موعد المحاكمة عند الساعة العاشرة صباحا، عندها ستنطلق العملية تحرير إيدليبو»

لاحت على شفتي إياد ابتسامة واهنة، فنهض رفيق زنزانته الذي كان مستلقيا وقال بلهجة مغاربية: «لقد كان ذلك منذ سنتين، لكن تم القبض علينا ونسياننا كل هذه المدة، لما حدث هذا؟»

ازداد توتر يزن فلم يكن بيده شيء فأجاب إياد بدلا منه: «أصبح هذا من الماضي، علينا التركيز على الخطة الآن» وقال موجها الحديث له: «هل رفاقك جاهزون هذه المرة؟»

– «آه... أجل ولكن...» وأضاف بصوت أوطأ: «لقد تم تفعيل المادة مرتين في اليومين الماضيين، وقد لاحظت الحركة ذلك... هل هو المستخدم الثاني؟»

مسح إياد مقدمة شعره وقد تجلت عليه ملامح قلقة، فلقد كان يحاول إخفاء هويته منذ زمن، وقال بعد صمت: «هل يستطيعون تعقب أثره؟»

– «لا، لا أظن، على الأقل إن لم يبق المستخدم بنفس مكان تفاعل المادة»

– «حسن... حسن» وأخذ تنهيدة مهمومة وأكمل: «لننتهي من هذا غدا»

عقب المغاربي: «أرجو أن تكون العملية الأخيرة»

قال إياد بحزم: «عليها أن تكون المعركة الأخيرة»

يتبع...

الفصل الأول 7
الفصل الثاني 75
الفصل الثالث 147
الفصل الرابع 178

تحت الغراب

ما هو الوطن؟ هل هو بقعة جغرافية من سهول وجبال وبحر؟ هل هو الحارة التي شبّ في حضنها الإنسان أم الأهل الذين ينشأ بينهم؟ أم هو تلك المجموعة من الناس الذين يستظلون تحت حكومة واحدة؟ ما هو؟ لما يغني الجميع عنه بجلال؟ لما يسيل الدمع والدم من أجله؟ لما نشتاق إليه حين ترمي بنا الأقدار في متاهات الغربة؟ الوطن... ما بالك يا وطن لا تبالي بحالنا؟ بحال أحبابنا وأصحابنا. ما أنت؟ هل أنت ذلك الجندي، الذي مات فوق بقعة الطين حين خزقت الرصاصة جسده واتخذته وطنا لها؟ أو أنت تلك الأم التي ندبت حالها وصرخت تدعو على الظالم وتقول روح ابني فدا الوطن؟ أو أنك ذلك الطفل، الذي سار حافي القدمين يبحث عن أهله في كومة الجثث، فلم يتعرف على رائحتهم التي صارت رائحة العفن الصاعد من الجسد والروح؟ بالله عليك يا وطن... ما أنت إلا سراب رسمك عاشق ولهان... ما أنت إلا خدعة الدهر لنحسب أننا ننتمي إلى هذه الأرض ونعلق بين سراديبها المظلمة.

سلسلة روايات
هولوكوست عشتار